

لعنة الجبل
رواية
شمس
للنشر والإعلام
د, محمد عبد التواب

لعنة الجيل

د. محمد عبد التواب

الكتاب : لعنة الجبل (رواية)

المؤلف : د. محمد عبد التواب

الطبعة الأولى : القاهرة ٢٠١٥

رقم الإيداع : ١٥٢٣٧ / ٢٠١٥

الترقيم الدولي : I.S.B.N: 978-977-493-223-6

الناشر

شمس للنشر و الإعلام

٨٠٥٢ ش الجامعة الجديثة . الهضبة الوسطى . المقطم . القاهرة

ت فاكس ٢٧٢٧٠٠٤ (٠٢) / ٠١٢٨٨٨٩٠٠٦٥ (٠٢)

www.shams-group.net

تصميم الغلاف : ياسمين عكاشة



لعنة الجيل

رواية

د. محمد عبد التواب

إهـــداء

إلى أمي الحبيبة التي منحتني الحب والسعادة، من بين أحضان أحلامها المُحطمة وأحزانها؛ فإهدائي هذا زهرة تتفتح لكِ يا أمي مع إشراقة كل شمس جديدة...

القريـة

هناك في الصحراء الشاسعة على البر الغربي من الوادي؛ تجد جبل المغاوير بصخوره الحادة، وعلوه الشاهق، حيث تقبع في بداية الطريق إلى كل تلك الصحراء المترامية الأطراف، التي لا ترى فيها سوى رمال تتحرك، لترسم لك الخوف من محاولة عبورها، ولا تسمع سوى صوت الرياح، كأصوات أشباح همس إليك بصراخاتها.

يقبع هذا الجبل بكل ما فيه من ألغاز وحكايات بالقرب من الوادي، حيث يمكنك أن تشاهد بعض الأشجار الصحراوية والنخيل المتناثر في الطريق الصاعد إلى هذا الجبل العتيق.

في حضن هذا الجبل تقع قرية صغيرة، تتكون من بعض المنازل المتناثرة التي تضم القليل من السكان، في حالة انعزال تام في قلب الصحراء وفي قلب هذا الجبل، ليحميهم من غضب الصحراء عليهم.

أهل القرية يعيشون داخل تلك المنازل التي تشعر أنها قديمة، مثل العلامات التي حفرتها الرياح في هذا الجبل الذي يشرُف على هذه القرية الصغيرة. لا يوجد بينهم شخص غريب، بل هم في الواقع عائلة واحدة كبيرة، النساء لا تعرفن الألوان بل ترتدين الملابس السوداء التي تغطي أجسادهن، كأنهن في حالة من الحزن الدائم، حتى الفرح مثل الحزن داخل تلك المنازل.

بدأت القصة في بداية العشرينيات من القرن الماضي في تلك القرية التي تقع في حضن الجبل، والذي تشاهده من كل مكان بها، كأنه حارس وكاتم أسرار القرية التي تقع في صعيد مصر على مشارف الصحراء، ولا يتعدى سكانها مائتي شخص، أغلبهم من النساء والأطفال والعجائز، فالرجال قد رحلوا أو ماتوا وهم في ريعان الشباب، ولم يبقَ سوى القليل منهم في القرية.

تعتمد تلك القرية على رعي الغنم في الصحراء من خلال النساء والأطفال، ليس هناك زراعة أو أي نشاط آخر، القرية في حالة من السكون الدائم مثل الموتى، لا تسمع فيها سوى صوت الريح والصدى القادم من الجبل، كأنه يخاطبهم ويذكرهم بما حدث في الماضي من حكايات.

القرية بعيدة عن الوادي وخاصةً مدينة الأقصر، حيث المدنية والأضواء والسائحين، والأجانب الذين أتوا إلى تلك المناطق لينقبوا عن الآثار من كل أنحاء العالم، يحاولون كل يوم اكتشاف شيء جديد داخل الرمال أو الوادي حيث دُفن الملوك والملكات، ويعتقد أهالي الصعيد أن هؤلاء الأجانب ليس لهم الحق في ذلك، فكل تلك الكنوز والآثار ملكًا لهم فقط، وليست ملك الحكومة المصرية أو من يأتي لينبش القبور، ويأخذها من الرمال معه أثناء رحيله.

لكي تصل إلى الوادي؛ لا يوجد سوى طريق واحد يمر بجوار الجبل، وهناك قافلة واحدة يخرج فيها شيوخ القرية كل شهر، من أجل جلب ما تحتاجه القرية من مدينة الأقصر، فيتم بيع ما صنعته النسوة القابعات بالقرية في قلب هذا الجبل. والطريق إلى القرية صعب يحتاج إلى من يتحمل السفر لمدة يوم أو أكثر من خلال تلك القوافل للذهاب إلى الأقصر أو العودة إلى القرية.

تلك القرية لا يوجد أي قرى قريبة منها، من يسلك هذا الطريق يعلم جيدًا أنها القرية الوحيدة التي تقع في نهايته، وتقع الصحراء بأكملها خلف القرية، فلا تسمع فيها سوى صوت الرياح

والذئاب التي تعوي منتظرة قدوم الليل؛ حتى تهبط من الجبل في طريقها إلى القرية لتبحث عن شاة أو أي شيء آخر تلتهمه، وتعود إلى الجبل مرة أخرى قبل أن يراها أحد من أهل القرية.

تمر الرياح بين منازل القرية المتناثرة مثل الأشباح التي تلهو وتعبث بقلوب من يسكنها، الكل يقبع داخل المنازل في الليل خوفًا من الرياح الغاضبة.

في بداية الطريق المؤدي إلى القرية تجد العديد من الرجال العجائز، يسميهم أهل القرية بالشيوخ، يجلسون بجوار المسجد الصغير بجانب بعضهم البعض، يتهامسون عن أحوال قريتهم وكيفية تصريف شئونها، فتجد كل منهم يتعكز على عصا خشبية يرسم بها أشكال على الرمال.

كل منهم يرتدي جلبابًا أسود وشالاً من الصوف الأسود وعمامة بيضاء، لهم عيون ثاقبة تشعر أنها عيون عاشت لأجيال قديمة في عمق هذا الجبل. وتلك المرأة العجوز التي تسير في طرقات القرية تهمس بكلمات كأنها تتحدث مع شخص ما يسير بجوارها، ثم تصرخ وتنادي على رجال قد ماتوا أو رحلوا، ولا يعلم أحد كيف ماتوا أو اختفوا في ذلك الجبل.

الكلاب تنبح عندما تشعر أنها قادمة، الكل يخشاها، وعندما يشاهدونها يفرون هربًا وفزعًا منها، حتى النساء تهرعن إلى داخل بيوتهن حتى لا تشاهدهن فتصيبهن إحدى لعنات تلك المرأة العجوز التي تأتي في الصباح من طريق الجبل، ثم تعود مرة أخرى إلى الجبل في المساء.

همام وموت أبيه

همام ذلك الصبي الذي لم يتخطَ من العمر سوى الثامنة بقليل، يعيش مع أمه وجده وأبيه الذي رحل في الليلة الماضية دون أن يعلم همام لماذا رحل والده، ربما صعد إلى ذلك الجبل مع بعض رفاقه يبحثون عن الرزق داخله، وربما يجدون ما يستطيعون بيعه عندما يرتحلون إلى الأقصر كعادهم لجلب الطعام إلى أهل القرية.

كان همام عائدًا من الكُتَّاب كعادته كل يوم مع رفاقه، حيث يتعلمون ويدرسون القرآن الكريم على يد شيخ عجوز يسكن في نهاية القرية، كلهم يرتدون نفس الجلباب الأسود والعمة البيضاء، يمزحون فيما بينهم ويلهون بقذف الأحجار الصغيرة المتناثرة في الطريق الرملي المؤدي إلى منتصف القرية، الوقت يقترب من الظهيرة حيث موعد الغذاء، لذلك بدأوا يشعرون بالجوع متلهفين للعودة إلى منازلهم ليأكلوا مع أهاليهم، ثم يتجمعون مرة

أخرى ليمارسوا ألعابهم، أو يرعوا الأغنام بجوار الجبل، ويحموها من الذئاب التي تأتي من الجبل لتخطف شاة من الأغنام كل يوم.

عندما اقترب همام رأى النساء يهرولنَّ إلى منْزله وهنَّ يصرخن ويبكين، والرجال من أهل القرية يتوافدون أمام منْزله، في بداية الأمر لم يفهم همام ماذا يحدث داخل المنْزل، ولكنه بدأ يشعر أن قلبه ينقبض وينبض بشدة، والفزع يملأ فكره ويسيطر على كل جوارحه. انطلق نحو المنْزل حتى وقف أمام الباب الذي فُتح على مصرعيه، وجد جده الشيخ يوسف مُنكس الرأس لا يستطيع النظر في وجوه القادمين لمواساته على تلك النكبة.

أم همام تجلس في وسط المنْزل تصرخ وتبكي بشدة، وهمام لا يستطيع أن يخطو داخل المنْزل، فهذا ليس منْزله الذي ألف أن يشاهد أمه فيه ذلك الوقت، وقت الظهيرة، تعد لهم الغذاء الذي ينتظره الكل.

تقدَّم همام بخطوات متثاقلة بطيئة داخل المنْزل، رأى الدموع المتحجرة داخل مقلتي جده؛ تخبره بأن شيئًا عظيمًا جللاً قد حدث، لا يعلم همام عنه شيئًا، ولكن قلبه نبض بصوت مرتفع،

سمعه داخل أذنه أقوى من ذلك النحيب الذي يسمعه من حوله في كل مكان داخل المنْزل.

تلفت همام يبحث عن أبيه في من يجلسون حول جده فلم يجده، أسرع إلى أمه لكي تحتضنه وتضمه إلى صدرها، حتى لا يشاهد تلك النسوة أو يسمع البكاء والنحيب الذي يصرخ داخل عقله، عندما نظر في وجه أمه المبلل بالدموع، ومقلتيها التي ارتشحت بلون الدم من كثرة البكاء، ضمته مرة أخرى بقوة إلى حضنها، كأنها تحاول أن تحميه من الموت الذي يتدفق داخل المنْزل لكي يعيش بداخله إلى الأبد.

نظر همام ببراءةٍ وتعجب إلى أمه وقال:

– أين أبي يا أماه؟ هل عاد من الجبل؟ ولماذا كل هؤلاء النسوة في البيت؟

لم تستطع الأم الإجابة، كانت الدموع تسيطر عليها، والنحيب كان إجابتها الوحيدة لكل تلك الأسئلة.

تقدمت إحدى النسوة من همام وأمسكته من يده تصطحبه إلى خارج المنْزل، أخبرته وهما في الطريق أنه سوف يبقى مع أولادها

اليوم ليأكل معهم، ويقضي بعض الوقت في اللعب، وأنه سوف يمضي ليلته هناك في منْزلها بعيدًا عما يجري داخل منْزل أبيه.

لم يفهم همام لما كل هذا، وماذا يحدث من حوله، ولماذا يذهب إلى بيت تلك المرأة، ولماذا يبتعد عن منْزل أبيه كل هذه الفترة، وأين أباه، هل عاد أم لا؟ تركته المرأة بين أولادها وعادت مرة أخرى إلى منْزل الشيخ يوسف، جلس همام يتلفت حوله ربما يستوعب شيئًا ما، وفي نهاية الأمر لم يفهم شيئًا، حتى أبناء المرأة كانوا ينظرون إليه بحزن، تقدم نحوه فتى أكبر منه قليلاً، جلس بجواره ووضع يده على كتف همام قائلاً له:

– لا تحزن يا همام فكل بيت بالقرية عاش تلك اللحظات الحزينة والكئيبة، الحزن يملأ القلوب قبل أن يملأ المنازل نفسها، فلا تحزن أخي الصغير، الوقت كفيل بذلك.

نظر إليه همام متعجبًا لا يفهم أي شيء من هذا، ولا يفهم ماذا حدث لكي يفعلوا معه كل هذا، ولكن الفتى أكمل حديثه قائلاً:

– أبيك يا همام قد مات مثل باقي شباب القرية الذين ماتوا من أجل إطعام تلك القرية، فلا تحزن، فأباك قد مات رجلاً بلا شك،

ولك الحق أن تفتخر به، وكلنا سوف نعيش تلك اللحظات، فأمهاتنا تعلم أن تلك اللحظة سوف تأتي دون أي شك، وأشعر أنني سوف أصعد قريبًا إلى هذا الجبل مثل أبيك.

في تلك اللحظة لم يفهم همام معنى كلمة الموت، هل تعني أنه لن يرى أبيه مرة أخرى، هل سيعود إلى منْزله حيث لن يجد والده ينتظر قدومه من الكُتّاب، ليجد حُضنه في انتظاره، وابتسامته البريئة التي ترسم العلامات بينهم، لكي يخبره بما حفظه من القرآن الكريم على يد الشيخ، وعن حكايات أصدقائه داخل الكُتّاب، وأن الشيخ يرسل له السلام والتحية مثل كل يوم.

في تلك اللحظات لم يفهم همام معنى كلمة اليتيم التي أصبحت مرادف لاسمه بين رفاقه، ولماذا لم يعد أبيه من الجبل، وماذا حدث له هناك منعه من العودة إلى المنْزل مرة أخرى؟. الكل ينظر إليه بحسرة والكلمات التي يسمعها لا يفهمها، فهي مثل الألغاز, يشعر همام أنها كلمات جديدة داخل حياته لا يستطيع أن يدرك ما خلفها من معاني.

همام لم يفهم ما معنى الموت والذهاب إلى المجهول، وحقيقة أن أباه قد مات، ظن همام أن أباه ربما سيسكن ذلك الجبل ولن يعود

مرة أخرى، فقرر بداخله أنه إذا لم يعد أباه سوف يصعد الجبل لكي يجده ويعيده إلى جده وأمه مرة أخرى، فالطريق إلى الجبل ليس ببعيد، وهو أصبح الآن رجل وليس بفتى، وسوف يفعل ذلك من أجل أن يجد أباه ينتظره مرة أخرى داخل صحن المنْزل كعادته كل يوم.

خرج همام من باب منْزل تلك المرأة ليقف وسط الطريق ينظر إلى الجبل، يخبره أنه قادم إليه لا محالة, قادم لكي يعيد أباه وأنه قادر على فعل ذلك، فلا الصحراء ولا الجبل سيكونان عائقًا أمام إصراره على هذا.

الطريق إلى الجبل

قرر همام أن يسلك طريق الجبل منفردًا بدون أي رفيق، كان يشعر أن تلك المهمة لن تهم أحد سواه، وأنه ذاهب ليرجع أبيه مرة أخرى إلى منْزل جده الشيخ يوسف، فالطريق إلى الجبل لن يتسع لسواه.

كانت خطواته بسيطة وصغيرة مثل قدميه الصغيرتين، وعمره الذي لم يتجاوز الثامنة، وأحلامه التي جعلت منه ذلك الصبي الذي بدأ رحلته لمحاربة الوحوش والأشباح التي أخذت أبيه من بين أحضانه للأبد.

مرَّ وقت طويل وهمام يسير في طريقه نحو الجبل، نظر خلفه فوجد بيوت القرية تختفي خلف ظهره، أصبحت صغيرة لا يراها على مرمى بصره، ولكنه لم يهتم بتلك المسافة، وكان مُصر على إكمال الطريق، ولكن عند مدخل الجبل ظهرت المرأة العجوز الشمطاء أمامه، تنظر إليه نظرة ليست بالنظرة الطبيعية التي يراها

في أعين النساء العجائز اللاتي يشاهدهن جالسات أمام منازلهن وهو في طريقه إلى الشيخ كل صباح، كانت نظرتها حادة قوية، كأنها تخطف أنفاسه فلا يستطيع التنفس طالما نظر إلى عينيها، كأنها تخبره بشيء ما.

لم يستطع همام أن يتحرك من مكانه أو يتخطاها لكي يكمل طريقه نحو الجبل، اقتربت منه العجوز وهي تتكئ على تلك العصا الخشبية، ابتسمت له في بداية الأمر ثم بدأت ضحكاتها تعلو كأنها صرخات شيطان أو شبح يصرخ في وجه همام.

أطلق همام لساقيه العنان عائدًا إلى القرية، ولم يتوقف عن الجري حتى ارتمى في حضن جده، بكى بشدة وأوصاله ترتعد من الخوف، لم يستطع أن يتحدث إلى جده ليخبره بما فعلته تلك المرأة العجوز الشمطاء عند مدخل الجبل أثناء صعوده إليه. نظر جده الشيخ يوسف إليه بخوف ورعب، ثم سأله متلهف لمعرفة ماذا حدث له:

– ماذا حدث يا ولدي، أخبرني ماذا حدث لك؟

مرت دقائق وهمام يلتقط أنفاسه ثم بدأ الحديث لجده قائلاً:

– كنتُ في طريقي إلى الجبل لكي أعيد أبي، لكي أسمع ضحكاته وصوته وهو يتحدث معك يا جدي مثل كل يوم، ولكن رأيتها وأنا في طريقي نحو الجبل...

حدق جده في وجهه قائلاً:

– من هي التي رأيتها عند مدخل الجبل؟

أجاب همام قائلاً:

– تلك المرأة العجوز المجنونة التي تجوب شوارع القرية، نظرت في وجهي واقتربت مني وهي تضحك، حتى أنني شعرت أن قلبي سوف يتوقف عن النبض، وأنها تقترب مني من أجل أن تقبض روحي من بين ضلوعي يا جدي.

ضم الجد حفيده إلى حضنه بقوة؛ حتى يشعر بالهدوء والسكينة مرة أخرى لفترة طويلة، ثم نظر إليه قائلاً:

– أباك يا همام ليس في الجبل بل في الجنة بإذن الله، ولن تستطيع أن تراه بعد الآن، لكنه يراك ويشعر بك، فهو جوارك يحميك من كل الشرور، وأنت تقرأ كتاب الله العزيز الذي يخبرنا أن في

السماء نجد الجنة، وأباك الآن في السماء يا همام، فلا تحزن على فراق أبيك، وأعلم أنك كنت أحب الناس إليه في هذه الدنيا.

لم يفهم همام شيئًا من كلمات جده ولكن شعر أنه لن يرى أباه مرة أخرى، وربما تلك الجنة في قمة هذا الجبل، ربما عليه أن يصعد إلى هذا الجبل يومًا ما ليقابل أباه مرة أخرى، لعله يقنعه بالعودة مرة أخرى إلى المنْزل.

ترك همام حضن جده ليذهب إلى أمه التي مازالت تبكي على فراق أبيه، لم يعد هناك أحد لأم همام سوى همام، فلم يكن له أخوة، بل كان هو الابن الوحيد لها، توجه إليها بخطوات بطيئة والدموع بدأت تملأ عينيه، حتى أصبح بين ذراعيها ناظرًا في عينيها قائلاً:

– لا تخافي يا أماه، فإذا كان أبي رحل ولن يعود، وأنه الآن في الجنة، فأنا مازلت هنا في المنْزل بجوارك، ولن أذهب إلى الجنة مثل أبي وأتركك وحيدة، بل سأكون بجوارك أنتِ وجدي، وسوف ننتظر سويًا عودة أبي إلينا مرة أخرى، لعله يشتاق لنا كما نحن نشتاق إليه.

نظرت أم همام إليه وانهمرت في البكاء الشديد، لم تجد شيئًا تقوله لولدها عن أبيه الذي مات ورحل مثل باقي رجال القرية، الذين ماتوا أو رحلوا نتيجة تلك اللعنة التي هبطت عليهم من هذا الجبل العتيق.

الرغبــة

مرت الأيام على موت والد همام، عادت الحياة داخل المنْزل إلى طبيعتها، ولكن الحزن والدموع وقلة الكلام بين الجد والأم وهمام كان الموقف السائد، الكل شارد وحزين لا يريد الحديث، والبيت أصبح بعد موت الأب مثل بيوت الأشباح، لا يوجد أحد يتكلم، حتى الجد الشيخ يوسف يجلس خارج البيت معظم الوقت ويرفض أن يدخل المنْزل؛ لأنه يتذكر ولده الذي مات، فيبكي حتى يتبلل شعر لحيته البيضاء من البكاء حزنًا على فراق ابنه، والزوجة الثكلى على موت زوجها؛ يستيقظ همام على صوت بكائها ونحيبها طوال الليل على أبيه؛ الذي لن يرجع مثل الكثير من رجال تلك القرية الملعون فيها الرجال فقط.

همام أيضًا قد تبدل من حال إلى حال، لم يعد همام ذلك الفتى البريء المبتسم للحياة، والذي كان يذهب إلى الكُتَّاب وهو سعيد يمرح مع أصدقائه طوال الطريق، بل أصبح يسير خلف أصدقائه،

بينه وبينهم مسافة كبيرة، حزين قليل الكلام شارد الذهن، حتى أثناء الدرس داخل الكُتَّاب لم يكن يشعر بما يجرى حوله، بل كان يقضي الوقت في تذكر حكاياته مع والده، لم يعد يرغب في العودة إلى البيت، فإن عاد لن يجد والده مثل ما كان يحدث في السابق، كان زملائه ورفاقه يشعرون بالحزن له، حتى الشيخ كان يترفق به ويجلسه بجواره حتى لا يشرد ذهنه طول الوقت.

مرت بضعة أشهر على موت والد همام والبيت مازال في حالة الحزن تلك، ولكن همام شعر بأن هناك شيئًا ما يدور بين الأم والجد، فالكثير من التهامس والكلام بينهم، الأم كانت مصرة على شيء ما والجد كان يعترض عليه، استغرقت تلك المناقشات والهمس بين الجد والأم أكثر من شهر.

ذات يوم؛ أثناء عودة همام من الكُتَّاب إلى المنْزل ناداه جده، وتبعته أمه نحو مجلس الجد داخل المنْزل، ابتسم الجد له قائلاً:

- ألا تريد زيارة الأقصر يا همام؟

نظر همام إلى جده بتعجب، ثم نظر إلى أمه التي بدورها ابتسمت له ابتسامة تشجيع؛ كان قرار السفر إلى الأقصر قراره هو، وإن

فعل سيكون أول فتى يذهب مع من يذهبون إلى الأقصر من رجال القرية، وهذا يدل على أنه سوف يصبح رجلاً مثل باقي الرجال، كانت إجابته سريعة وهو يهز رأسه بالإيجاب قائلاً:

– نعم يا جدي، أود الذهاب إلى الأقصر مع رجال القرية.

ابتسم الجد قائلاً له:

– حسنًا... عندما يخبرني شيخ الكُتَّاب أنك أتممت حفظ ما عليك من القرآن الكريم؛ سوف تذهب مع رجال القرية إلى الأقصر لكي تشاهدها.

لم يصدق همام ما يسمعه من جده الشيخ يوسف، فهذا لم يحدث مع أي فتى من فتيان القرية، فقط هو من سوف يذهب برفقة القافلة، كأنه رجل عظيم الشأن في قريتهم الصغيرة، كان على وشك تحقيق رغبة وأمنية دائمًا ما تمناها، وهي رؤية الأقصر ومشاهدة كل الروايات التي كان يرويها رجال القرية عند عودتهم منها، وكم هي مدينة رائعة فيها الكثير من الأماكن والعجائب والسياح والأجانب والسيارات التي لم يشاهدها من قبل.

اجتهد همام في دراسته بالكُتَّاب، وشعر أنه لابد أن يفعل المستحيل لكي يرضى عنه الجد الشيخ يوسف؛ ليسمح له بالسفر إلى الأقصر، تلك الأمنية جعلته ينسى لبعض الوقت حزنه على موت أبيه، ذلك الحزن الذي يملأ قلبه ولا يريد أن يفارقه، بدأ يحكي لأصدقائه ما أخبره جده به، وأنه يجب أن يجتهد ويحفظ القرآن حتى يحقق هذا الحلم.

كان همام يقضي معظم وقته في تخيل ماذا سوف يحدث له من مغامرات، وماذا سيشاهد في الأقصر، كان يذهب إلى من ارتحلوا أو سافروا قبل ذلك، لكي يسألهم عما شاهدوه في تلك المدينة، كان كثير الأسئلة، لا ينتظر حتى الإجابة، فكان الرجال يضحكون على حماسته في السفر إلى الأقصر، حتى يشاهد ما تخيله من حكايات وروايات حول تلك المدينة الجميلة التي تنتظر قدومه إليها. لم تفارقه الأحلام والتخيلات، بلاشك كانت خطوة جديدة في حياته.

مر أكثر من شهر على حديث جده له، كان يصارع الوقت لينهي الجزء الخاص بتلاوة القرآن الكريم، لكي يخبر الشيخ هذا الحديث إلى جده ليسمح له بالسفر، وبالفعل ذهب الجد الشيخ

يوسف إلى الكُتَّاب ليطمئن على همام، حيث أخبره شيخ الكُتَّاب أن همام قد أنهى ما عليه من تلاوة القرآن الكريم، كانت سعادة همام بتلك الكلمات بالغة، بل شعر أن قدميه لا تلامس الأرض من شدة الفرحة داخل قلبه، حتى أنه احتضن الشيخ والجد ثم تركهم وعاد مسرعًا إلى والدته يبلغها بذلك، وأنه سوف يذهب إلى الأقصر في الرحلة القادمة مع رجال القرية.

الرحلة إلى الأقصر

في تلك الليلة جلست أم همام بجواره، كانت قد أعدت كل شيء من ملابس وطعام له أثناء السفر إلى الأقصر، مع بعض المال ليكون مثل الرجال معه ما يكفيه من المال، نظرت إليه والدموع تملأ مقلتيها لأن همام سوف يتركها لأول مرة في حياته،كذلك همام لم يستطع النوم؛ لأنه بعد بضع ساعات سوف يرحل مع القافلة المكونة من بعض الرجال والشيوخ من أهل القرية.

طرق الجد باب الغرفة لكي يذهب همام معه إلى المسجد لصلاة الفجر، ذهب همام مع جده وهو يحمل ملابسه فوق كتفه، التفت خلفه فوجد أمه تقف علي باب البيت تنظر إليه، شعر بدموعها التي تنهمر، فكأن قلبها قد سافر مع همام وتركها وحيدة داخل هذا المنْزل.

بعد صلاة الفجر تجمع الرجال، كانت القافلة مكونة من خمسة جِمال وخمسة رجال، أكبرهم الشيخ عثمان، اتجه الجد نحو الشيخ عثمان الذي عهد إليه أمر همام في تلك الرحلة، وعندما اقترب الجد من الشيخ عثمان وبيده همام نادى عليه قائلاً:

- يا شيخ عثمان هذا حفيدي همام، هو ما تبقى لي من الدنيا بعد ولدي، وقد وضعته بين يديك كأمانة وكحفيد لك أيضًا، ترعاه وتحميه من كل سوء حتى تعود إلينا سالمًا غانمًا بإذن الله.

ابتسم الشيخ عثمان إلى الجد وقال ضاحكًا:

- لا تخف يا شيخ يوسف فحفيدك مثل حفيدي، وسأجعله يتذكر تلك الرحلة طوال حياته، لكي يتذكرني كلما تذكر الأقصر، ولا تخف فسوف نعود إلى القرية بعد أسبوع بإذن الله.

تحركت القافلة وامتطى همام الناقة خلف الشيخ عثمان، أمسك بجلباب الشيخ عثمان بقوة خوفًا من الوقوع من فوق الناقة، فضحك الشيخ لهذا وقال:

- لا تخف يا همام فأنت الآن رجل ولست صبيًا، أبيك كان يأتي معنا يضحك ويطلق النكات على كل من كان معه في القافلة، والكل كان سعيد به، وأنت الآن معنا فلا تخف يا رجل.

شعر همام في تلك اللحظة أنه لم يعد صبيًا؛ بل أصبح رجلاً يشبه أباه، ولابد ألا يخشى شيئًا، فالمستقبل لابد أن يحمل له الكثير ليكون شخصًا مختلفًا عن باقي الصبية في القرية.

أشرقت عليهم الشمس في بداية الطريق؛ شعر همام أنها المرة الأولى التي تُشرق عليه الشمس وهو بعيد عن أمه وليس بين ذراعيها، بل على تلك الناقة خلف الشيخ عثمان. كانوا يمرون بين بعض الجبال من خلال المدقات في بداية الرحلة، حيث كان الطريق يهبط بهم لطريق آخر نحو الوادي، وعندما اقتربت الشمس من منتصف السماء؛ جلسوا بجوار بئر ماء ليصلوا صلاة الظهر ويتناولوا بعض الطعام لمواصلة الطريق نحو الوادي.

عندما اقترب الليل؛ قرر الشيخ عثمان المبيت بجوار مجموعة من أشجار النخيل المترامية في منطقة رملية، كانوا يعلمون أنهم في منتصف اليوم الثاني سيصلوا إلى مشارف الأقصر.

في الليل وضع الشيخ عثمان بعض القماش والأغطية المجهزة لتلك الرحلات، لكي ينام عليها همام بجواره، ولكن همام لم ينم، بل كان ينظر إلى السماء، كان يشعر أنه يرى وجه أبيه يلمع بين النجوم، وأن أمه مازالت تبكي لفراقه، لأنها أول مرة يترك المنْزل ويترك حضنها، ولكن غدًا سوف يكون أفضل لأنه سوف يرى الأقصر لأول مرة في حياته.

في اليوم التالي عندما انتصف النهار كانوا على مشارف الأقصر، لم يعد يفصلهم عن المدينة سوى نهر النيل، تركوا ما يحملون والجِمال لدى بعض المعارف، وعبروا النيل بالمراكب النيلية ذات الأشرعة العالية الضخمة.

لم يصدق همام ما يشاهده، كانت أول مرة يرى النيل وكل تلك المياه والزراعات واللون الأخضر، كانت قريتهم صحراء ليس بها سوى بعض الحجارة المتساقطة من الجبل، كيف عاش أهله كل ذلك العمر في حضن الجبل، وتركوا كل هذا الجمال وكل تلك المياه التي تسري في النيل، لم يكن همام يتحدث، بل فتح فمه من شدة الاندهاش، وكلما نظر إليه الشيخ عثمان ابتسم وضحك على ما يفعله همام.

كل ما شاهده همام في الأقصر كان بمثابة مفاجأة، فلم يكن يتخيل كل تلك الأشياء التي شاهدها، كان الشيخ عثمان يتابع كل هذا على وجه همام، فهمام لم يكن متخيل ذلك الطريق الممهد بجوار النيل، وتلك الحناطير المزينة بقناديل نحاسية ذات أجراس والتي تُضاء أثناء الليل، وتلك السيارات التي تسير بدون أي شيء يدفعها للسير، فكان يشعر أن داخلها جان مُسخر لذلك، حتى

أنه كاد يجري خوفًا منها، لولا أخبره الشيخ عثمان أنها تعمل بطريقة اخترعها الإنسان، وهنا أدرك همام أن هناك عالم آخر مختلف تمامًا عن قريته.

كان همام يلتفت حوله في كل اتجاه حتى يشاهد كل شيء، ولا يترك شيئًا ربما يكون عجيبًا يشاهده لأول مرة. أكثر ما أثار عجب همام الاختلاف الكبير بين ملابس وملامح أهله في القرية، وملابس وملامح بعض الأجانب الذين أخبره الشيخ يوسف أنهم قادمون من خلف البحر العظيم في شمال مصر، فملامحهم كانت مختلفة، حيث الشعر الذهبي والعيون الزرقاء والبشرة الوردية أو البيضاء، عكس ملامح أهل قريته، حتى الملابس كانت مختلفة، حيث شاهد الكثير من الناس يرتدون أزياء وملابس متنوعة ،كذلك ألوانها كانت مختلفة، ليست مثل الجلباب الأسود الذي يرتديه همام، وكان الكثير من أصحاب البشرة الوردية والشعر الأشقر يأتون إلى تلك المدينة.

أخبره الشيخ عثمان أنه سوف يصطحبه لكي يشاهد شيئًا عجيبًا ليس له مثيل، مبنى مثل المنْزل، لكنه يحتوي على عشرات الغرف والأماكن بداخله، يقع بجوار النيل حيث يأتي الخواجات والمغتربين

من أماكن بعيدة ليقضوا بعض الوقت به ويسمى القصر الشتوي، لم يتخيل همام أن هناك منازل أو أشياء بمثل هذه الضخامة والروعة، فكل شيء مختلف في الأقصر، حتى المقاهي التي لم يشاهد مثلها من قبل، حيث يتجمع الناس بها لأشياء كثيرة.

فيما بعد ذهب الشيخ عثمان لمقابلة أشخاص لا يعلم همام عنهم شيئًا، كان الحديث هامسًا، وقد ترك الشيخ عثمان همام يجلس بالقرب منهم على إحدى تلك الطاولات في المقهى، كانوا يتجادلون على سعر بعض التماثيل الصغيرة، والتي كان يراها مع جده، لم يكن يعرف ما هي ولماذا يبيعونها في الأقصر.

خلال فترة وجود همام في الأقصر شاهد الكثير من المقاهي المختلفة، منها الشعبي ومنها من يجلس عليها مصريون بطرابيشهم الحمراء، أو الخواجات بتلك القبعات المختلفة ألوانها، كما رأى المعابد المنتشرة في أنحاء كثيرة من المدينة، كانت تمثل لهمام أشياء مشابهة لتلك الأشياء والتماثيل التي يمتلكها جده، أو التي يحملها الشيخ عثمان لبيعها في الأقصر، مع اختلاف أحجامها بالطبع.

تلك الرحلة غيَّرت الكثير من مفاهيم همام حول الحياة، وأن الحياة ليست تلك التي يعيشها داخل قريته، بل أن هناك حياة

أكبر وأوسع ومتنوعة في تلك المدينة، وكيف يمكن أن يصبح مثل هؤلاء الأشخاص في يومٍ ما، وما هي تلك التماثيل التي يتاجرون بها ومن أين أتت؟ هل من الجبل أم من مكان آخر؟.

بدأ همام يدرك أن هناك أشياء كثيرة تحدث من حوله، سواء كانت في قريته بحضن الجبل أو في تلك المدينة الصاخبة، بكل ما فيها من سيارات وحناطير ومقاهي، وتلك الوجوه المختلفة القادمة من أماكن كثيرة بعيدة أيضًا مثل قريته.

عاد همام إلى قريته وعلامات استفهام كثيرة تدور في عقله، لابد أن يفهم هل موت أبيه له علاقة بتلك التماثيل الصغيرة؟ ولماذا يفعلون ذلك؟ ولكنه كان سعيد بتلك الرحلة التي خلقت له الكثير من الحكايات والذكريات والروايات؛ التي يستطيع أن يسجلها أو يحكيها لأصدقائه في القرية.

العودة إلى القرية

عادت القافلة إلى القرية محملة بالكثير من البضائع، ليتم توزيعها على الأهالي، وعندما علمت القرية بعودة القافلة؛ تجمع الصبية والنساء قرب المسجد منتظرين قدوم الشيخ يوسف والشيخ عثمان؛ ليتم توزيع البضائع على المنازل التي مات من يعيلهم من الرجال مثل والد همام، كلهم ماتوا بنفس الظروف والتي كانت غامضة بالنسبة لهمام وكل الصبية.

توقفت القافلة بجوار المسجد، أسرع همام نحو جده عندما شاهده يقترب يحضنه ويقبله ويقبل يديه والسعادة تملأ وجهه برؤيته بعد تلك الرحلة، قال جده الشيخ يوسف:

– كم اشتقت إليك يا همام، وأمك لم تشعر بالراحة إلا عندما علمت بقدومك يا ولدي.

أجاب همام وهو في قمة السعادة:

– نعم يا جدي كم اشتقت إليك وإلى أمي وأصدقائي أيضًا.

فأجابه الجد قائلاً:

- وماذا فعلت في الأقصر؟ وكيف وجدت الشيخ عثمان معك طوال الرحلة؟

أجاب همام بكل سعادة:

- الشيخ عثمان كان بمثابة الجد لي يا جدي، أما بالنسبة لمغامراتي وما شاهدته هناك فعندي الكثير لكي أخبرك به، ولكن دعني يا جدي أذهب لرؤية أمي أولاً، فكم أنا مشتاق لرؤيتها كثيرًا.

ابتسم الجد لهمام وأخبره أن والدته تنتظره في المنْزل مشتاقة لرؤيته، بالفعل انطلق همام نحو المنْزل لكي يرى والدته التي كانت تنتظره عند مدخل المنْزل، احتضنته وهي تبكي من الفرحة. جلس همام بجوارها يحكي لها ما شاهده وما حدث في الرحلة من أشياء عجيبة شاهدها لأول مرة في حياته، لم يكن يصدق أنه من الممكن أن يشاهد كل ذلك في تلك الرحلة.

جاء أصدقاء همام عند باب المنْزل لكي يرحبوا به وبعودته، تجمعوا في صحن المنْزل وأخذ همام يحكي لهم الكثير من الحكايات عما شاهده في تلك الرحلة. كانت أم همام في غاية السعادة عندما شاهدت أصدقاءه يتجمعون حوله لكي يستمعوا إلى ما يقصه من

حكايات حول تلك الرحلة، فقدمت لهم الشاي مثل رجال القرية عندما يأتون لزيارة الجد طلبًا لمشورته، فالآن همام أصبح رجلاً له الكثير من الذكريات التي شاهدها في الأقصر، مثل باقي الرجال من أهل القرية.

أصدقاء همام كانوا في حالة شديدة من التعجب وعدم التصديق عندما أخبرهم عن العربات التي تسير دون خيل، أو الكهرباء التي تُضيء الفنادق الضخمة، كانوا يتجمعون كل يوم بعد خروجهم من الكُتاب في صحن منْزل همام لكي ينصتوا إليه وهو يخبرهم بالمزيد عما شاهده في مدينة الأقصر، وكيف أن هناك أناس آخرون شاهدهم بملامح مختلفة عن ملامح أهل القرية، وعندما كان يصف ملامحهم أو ملابسهم يتعجب أصدقائه من تلك الأشياء الغريبة التي يرويها لهم همام.

الجمل

عادت حياة همام إلى طبيعتها في القرية، حيث العودة إلى الكُتَّاب لتكملة حفظ القرآن الكريم، ولكن تفكير همام أصبح مختلف الآن، كان الكثير من الأسئلة تدور في ذهنه لا يستطيع أن يجد إجابة لها، ولا يستطيع أن يتجرأ ويسأل جده الشيخ يوسف لكي يعرف أو يفهم ما يحدث في القرية، وأيضًا ما حدث في الأقصر.

لم يجد همام أحدًا يخبره بتلك التساؤلات سوى صديقه خالد الذي كان يشاركه في طريق العودة من الكُتَّاب، نظر همام إلى خالد قائلاً:

– خالد من أين تأتي القرية بالمال الذي تنفقه على البضائع التي تأتي من الأقصر؟، فتلك الأغنام التي نرعاها لا تكفي لكل تلك الأشياء التي تأتي من الأقصر.

نظر خالد إلى همام متعجبًا وقال:

- في الواقع لم أفكر في كل تلك الأمور، ربما كانت الأغنام تكفي أهلنا، والفائض يستخدم في شراء البضائع القادمة من الأقصر.

أجابه همام قائلاً:

- هل رأيت من قبل تلك التماثيل الصغيرة التي كانت مع جدي ومع الشيخ عثمان؟

أجابه خالد قائلاً:

- لا، لكني سمعت والدي يحدِّث أمي أنهم وجدوا بعض تلك التماثيل الصغيرة وبعض الذهب في الجبل، أو في الصحراء القريبة منذ فترة قريبة، وأن شيوخ القرية ابتهجوا عندما علموا ذلك.

تعجب همام من ذلك ولم يفهم ما هي قيمة تلك التماثيل بالنسبة للقرية، وهل يخرج الرجال إلى الجبل أو في الأماكن القريبة لكي يبحثوا عن تلك التماثيل أم لرعي الغنم فقط؟ وهل تباع تلك الأشياء من أجل القرية كلها؟.

شعر همام أن خالد صديقه لن يخبره بتلك الإجابات لأنه في الواقع لا يعلم شيئًا، فلزم الصمت حتى لا يخبر خالد أحدًا بما يدور في عقل همام.

كان همام فتى ذكيًا، استطاع أن يتعلم القراءة والكتابة، وأصبح يبحث عن أشياء أخرى يقرأها غير تلك الأوراق القديمة البالية عن الشعر التي وجدها عند شيخ الكُتاب، واستطاع أن يقنع جده وأمه أن يذهب في العام القادم إلى الأقصر مع الشيخ عثمان ليكرر تلك الرحلة إلى الأقصر.

مرَّت الأيام والشهور وذهب همام مرة أخرى إلى الأقصر، ولكن في تلك المرة ذهب ليفهم ويتعلم، أراد همام أن يعرف الكثير عما يدور في تلك المدينة، كان مازال صغيرًا لكي يستوعب كل هذا، ولكنه وجد ضالته عندما شاهد بائع الجرائد والكتب، فكان هذا أمتع شيء قد اكتشفه خلال الرحلة، اشترى بعض الكتب والجرائد وعاد بها إلى القرية.

تعجب الجد الشيخ يوسف كثيرًا من الكتب الذي اشتراها همام من المدينة، فهذه أول مرة يشتري أحد من القرية كتبًا ليقرأها، وهنا أدرك الجد أن همام مختلف عن كل الصبية، بل سوف يكون مختلف عن باقي رجال القرية في المستقبل.

كان همام يقضي وقته كله في قراءة أول كتاب، الذي كان عن تاريخ مصر الإسلامي، لم يصدق كل الأمور التي قرأها، وأن

هناك مدينة أخرى عظيمة وكبيرة في شمال مصر تسمى القاهرة، وأشياء كثيرة عن الحضارة الإسلامية. كان يقضي وقته داخل البيت ويرفض الخروج، حتى أن صديقه خالد غضب من ذلك، وعندما أنهى همام كتابه الأول ذهب إلى منزل خالد يحمل هذا الكتاب بين يديه، طرق باب المنزل حيث فتح خالد ونظر إلى همام بغضب قائلاً:

– ماذا تريد يا همام؟

أجابه همام قائلاً:

– أريدك أن تقرأ هذا الكتاب، لتعلم لماذا لم أكن أرغب في الخروج معك من أجل الرعي أو اللعب، فقط اقرأ هذا الكتاب، وعندما تنتهي منه أعده لي، بالتأكيد سوف تتعلم الكثير عن الأشياء التي تدور خارج نطاق قريتنا يا خالد، فالحياة في القرية ربما لا تسمح لنا بزيارة تلك الأماكن، لكن نستطيع ذلك من خلال ذلك الكتاب، فقط اقرأ الكتاب.

عاد همام إلى بيته ليقرأ المزيد من الكتب، حتى أصبح مشهورًا بين أقرانه بتلك الحكايات التي كان يقرأها في الكتب، وكان يتناقش مع خالد حولها، مما جعل هناك علاقة وطيدة بينه وبين خالد لا

يفهمها أحد، نتيجة المعلومات التي كانت بين صفحات الكتب، والتي تنوعت من التاريخ إلى الرومانسية.

مرت الأعوام على همام وخالد حيث بلغا الثالثة عشر، وأدركا أنه يجب عليهما أن يذهبا إلى الأقصر مرة كل شهر، ولكنهما مازالا صغيران، ثم هل سيوافق الجد على ذلك أم لا، هنا قرر همام أن يذهب لجده ليخبره برغبتهما.

اقترب همام من جده الشيخ يوسف وجلس بجواره قائلاً:

– جدي لي طلب ورغبة أريد أن أحققها أنا وصديقي خالد، ولن يساعدنا أحد فيها سوى أنت فقط يا جدي.

نظر الجد له متعجبًا قائلاً:

– ماذا تريد يا ولدي، أخبرني بما يدور في رأسك؟

أجابه همام بكل عفوية قائلاً:

– أريد أن أشتري جملاً لكي أذهب به أنا وخالد إلى الأقصر مع القافلة كل شهر، فهل تسمح لي بذلك يا جدي؟

سكت الجد قليلاً ثم نظر إلى همام قائلاً:

– ولماذا تريد أن تذهب كل شهر مع القافلة إلى الأقصر؟

أجابه همام قائلاً:

- أرغب في شراء المزيد من الكتب، وزيارة أماكن كثيرة في تلك المدينة، وأجلس على تلك المقاهي المختلفة هناك، أريد أن أفهم ما قرأته وما أشاهده هناك... أريد يا جدي أن أكون حُرًّا أتجول في الشوارع، أشاهد المعابد وأتأملها، أريد أن أفهم ما اقرأه في الكتب.

أجابه جده الشيخ يوسف باقتضاب قائلاً:

- اذهب الآن يا همام.

أدرك همام أنه أخطأ حينما تحدث مع جده، شعر أن جده غضب منه لأول مرة طوال تلك الفترة. أسرع إليه خالد ليطمئن ماذا فعل مع جده قائلاً:

- ماذا حدث يا همام، أخبرني ماذا حدث؟

أجابه همام قائلاً:

- قال جدي لي اذهب يا همام، ولم ينطق بشيء آخر!

أدرك الصديقان أن تلك المحاولة باءت بالفشل، والحلم أصبح سرابًا مرة أخرى لهما.

بعد مرور أسبوعين على تلك الحكاية وَجَدَ همام جدّه قادمًا إلى البيت، وخلفه جمل جميل المنظر مازال فتيًا مثل همام، نظر الجد إلى همام قائلاً:

- هذا الجمل لك يا ولدي، الآن أصبحت رجلاً تستطيع السفر مع رجال القرية إلى الأقصر متى شئت.

لم يصدق همام ما يقوله جده له، أخذ يقفز في الهواء من السعادة والفرحة وهو يُكذب أذنيه، ثم سأل جده مرة أخرى قائلاً:

- حقًا... هل ما تقوله يا جدي صحيح؟! هل هذا الجمل لي وأستطيع الذهاب إلى الأقصر أنا وصديقي خالد؟

أجابه الجد وعيناه ممزوجة بالفرحة والخوف على همام من تلك الحياة الجديدة له قائلاً:

- نعم يا ولدي ما سمعته صحيح.

انطلق همام وهو يمتطي الجمل، ذهب إلى خالد ليخبره أن جده اشترى له هذا الجمل من أجل السفر مع رجال القرية، وأنهما الآن أصبحا رجلين، وأن خالد سوف يشاهد الأقصر مع همام لأول مرة في حياته بدلاً من الحكايات التي كان يسمعها من همام فقط.

لم يشعر همام وخالد أن هذا الجمل وسيلة للسفر، لكنهما شعرا أنه أصبح صديقهما ورفيقهما نحو أشياء جديدة سوف تشبع بعض فضولهما ورغبتهما في اكتشاف ما يحدث بقلب المدينة البعيدة عن القرية، من عجائب وحياة مختلفة، وأناس لهم أفكار مختلفة عن أهل قريتهم البسيطة.

انتظر همام وخالد بفارغ الصبر موعد القافلة الجديدة، فكانا يتناوبان مع بعضهما في خدمة الجمل وإطعامه والخروج به لكي يأكل في المرعى بجوار الجبل، فأصبح الجمل محور حياتهم هما الاثنين.

العجوز

تكررت رحلات همام وخالد إلى الأقصر، وأصبح لهما حرية التنقل والتجوال خلال شوارع الأقصر، ومعرفة الكثير من أهل الأقصر، وشراء الكتب خاصةً حول الحضارة الفرعونية، أصبحا يعرفان أشياء كثيرة من تلك الكتب ويشاهداها في معالم المدينة، تعرفا على المقاهي التي يجلس عليها المثقفون والأجانب القادمون من أجل التنقيب عن الآثار من الإنجليز، كانا يجلسان كثيرًا في المقاهي ليستمعا لتلك المناقشات والحوارات، التي تحدث بين المثقفين وبعض من يتحدث اللغة العربية من هؤلاء الأجانب.

أدرك همام وخالد أن هناك أشياء كثرة قد تعلماها وتعرفا عليها خلال الرحلات، وأن هناك العديد من الأسرار التي تحدث داخل قريتهم لا يعلما عنها شيء، وفي كل رحلة كان هناك الجديد من الأشياء والأشخاص تضيف الكثير إلى تفكيرهم.

هكذا مرت الأيام والشهور على همام وخالد ما بين حفظ القرآن الكريم، وقراءة الكتب، والمناقشات التي كانت تدور بينهما في الطريق أثناء عودهما من الكُتاب، حتى ظهرت تلك المرأة العجوز أمامهم في الطريق فهرب كل أصدقاء همام، حتى خالد لم يجرؤ أن يكمل طريقه ويمر بجوار تلك المرأة العجوز، كذلك أراد همام أن يفعل ذلك ولكن العجوز صرخت بصوتٍ عالٍ قائلة:

– همام... يا همام؟

لم يستطع همام أن يهرول مثل باقي أصدقائه، فالتفت إليها محدقًا بها بدهشة، كيف عرفت اسمه، ولماذا نادت عليه هو من بين كل هؤلاء الصبية؟!.

اقتربت المرأة العجوز قليلاً من همام قائلة:

– همام... يا همام... الملكة يا همام.

ثم نظرت العجوز نحو الجبل وأشارت بيدها إليه، فارتعب وفزع وأطلق ساقيه للريح حتى عاد إلى منزله، ارتمى في حضن جده وهو يرتجف من الخوف ويتصبب العرق بغزارة من جبينه.

نظر إليه جده بفزع قائلاً:

- ماذا حدث يا ولدي، أخبرني ماذا حدث؟

أجابه همام بصوت متقطع قائلاً:

- العجوز نادتني باسمي قائلة الملكة يا همام، ثم أشارت إلى الجبل يا جدي.

ضمه جده إلى حضنه قائلاً:

- لا تخف يا ولدي، لا تخف ولا تقترب من تلك المرأة مرة أخرى.

ضمه جده إلى صدره مرة أخرى ونظر إلى أم همام والخوف يملأ عينيهما، والأم تكاد تصرخ من الخوف على ما حدث مع همام، شعر همام من خلال عينيهما أن هناك أشياء كثيرة مجهولة مرتبطة بتلك العجوز، ومن هي الملكة التي عندما سمع جده بها شعر بكل هذا الخوف؟!.

نظر همام إلى جده قائلاً:

- من هي الملكة يا جدي، وهل تعيش في هذا الجبل؟

هزه جده بعنف قائلاً:

- لا توجد ملكة ولا يوجد شيئًا في هذا الجبل، هذه المرأة العجوز مجنونة وهذي بالكثير، فلا تشغل بالك بها، ولا تقترب منها يا همام، هل فهمت؟ لا تقترب منها أبدًا.

لم يجد همام الإجابة بين كلمات جده، بل وجد فزعًا وخوفًا شديدين، وإصرار على إنكار كلام تلك العجوز.

حمل همام كل تلك التساؤلات وعلامات الاستفهام إلى صديقه خالد، لعله يجد إجابة عما يدور في خُلده، ولكن خالد لم يفهم ما هي تلك الملكة، وما علاقتها بالجبل، فقررا الذهاب إلى شيخ المسجد لعله يعلم من هي الملكة، ولكن كانت إجابته أشد غموضًا عندما سمع همام يسأله عن الملكة، حيث هبَّ مفزوعًا يتمتم قائلاً:

- أعوذ بالله العظيم، أعوذ بالله العظيم من الجن والإنس يا رب، رحمتك من تلك اللعنة.

الأمور تزداد تعقيدًا بالنسبة لهمام وخالد، فمن هي الملكة؟ وما هي تلك اللعنة التي يتحدث عنها الشيخ؟ ولماذا كل هذا الخوف والفزع والهلع الذي يصيب كل من يسمع كلمة الملكة.

لم يستطع همام مقاومة رغبته وفضوله في معرفة السر وراء كل هذا، وهل هناك ملكة تعيش في ذلك الجبل؟ وهل اللعنة مرتبطة بتلك الملكة؟ ماذا يحدث في ذلك الجبل؟.

في ذلك اليوم لم يتخذ همام نفس طريق العودة إلى المنْزل بعد الكُتاب، بل نظر نحو الجبل وقرر أن يقترب منه لكي ينظر إليه ويتأمله، لعله يجد شيئًا هناك أو يبحث عن دليل ما بالقرب منه، ولكنه عندما اقترب من الجبل أخذ يتأمله ويفكر بعمق في تلك الكلمات؛ الملكة واللعنة.

التفت همام خلف ظهره فجأة فإذا المرأة العجوز تقف خلفه قائلة:

– يا همام.. الملكة يا همام... وتشير إلى الجبل.

اقترب همام من المرأة العجوز قليلاً والعرق يتصبب بغزارة منه، والخوف يملأ قلبه الذي ينبض بعنف وقال:

– من هي الملكة أيتها العجوز؟ أخبريني ما هي اللعنة؟

أجابته العجوز قائلة:

– الملكة... اللعنة... الجبل.

ثم تركته ورحلت، فصرخ همام قائلاً:

– لم تخبريني بشيء، ولماذا أنا أيتها المرأة؟ لماذا أنا؟

تركته العجوز وسارت في طريقها تتمتم ببعض الكلمات، من بينها تلك الكلمات السابقة، مما زاد من حيرة همام، لماذا اختارته تلك المرأة العجوز؟ أم أن تلك الملكة هي التي اختارته؟ وهل هناك لعنة؟ ربما يكون والده قد مات جراء تلك اللعنة، أم اللعنة لكل أهل القرية؟ ولماذا يخشى أهل القرية التحدث عن تلك اللعنة؟.

كانت الحيرة تسيطر على همام، أصبح يفكر في تلك الأشياء بالنهار والليل، ويذهب إلى جوار الجبل يتأمله لساعات ولا يستطيع أن يجد إجابة عن كل علامات الاستفهام التي تدور بداخله، لماذا اختارته هو؟! هذا هو السؤال المهم.

استمر همام في تلك الحيرة، لماذا اختارته العجوز هو من بين كل هؤلاء الفتية من أهل القرية؟ ومن هي تلك الملكة المقصودة في الحكايات؟ تذكر الكتب التي يشتريها في كل زيارة إلى الأقصر؛ فعاد مسرعًا إلى المنْزل ليبحث عن كل الكتب التي تتحدث عن التاريخ الفرعوني، جمعها وأخذ يعيد قراءتها لأيام لكي يجد شيئًا ما حول تلك الملكة، أو حتى ذلك الجبل، لكنه لم يصل إلى شيء يذكر.

عندما طرق خالد باب حجرته وجد همام في دنيا أخرى بين كل تلك الكتب، لم ينتبه إلى وجود خالد بجواره داخل غرفته، صاح عليه خالد قائلاً:

– همام سوف تدفع نفسك إلى الجنون، لماذا تهتم بتخاريف تلك المرأة العجوز؟!

أجابه همام وذهنه شارد قائلاً:

– ربما ليست تخاريف يا خالد، الإجابة ليست في تلك الكتب، ولكن في عقول شيوخ القرية، ولا أعلم لماذا ينكرونها؟

أجاب خالد قائلاً:

– ليست هناك إجابة، لأن كل ما سمعته مجرد تخاريف وأوهام تسكن عقلك أنت فقط، لتنسَ كل ذلك حتى نرى ماذا سنفعل في موضوعات أهم في حياتنا يا صديقي.

بعد عدة شهور بدأ همام يشعر باليأس من أن يجد إجابات حول كل تلك الألغاز، كانت المرأة العجوز تسير بجواره ولا يهرب منها، بل كان يقف ينظر إليها عكس أهل القرية الذين يفزعون لرؤيتها، أما هو فكان ينتظر منها شيئًا ما جديد لعلها تخبره به يساعده في حل تلك الألغاز.

مرت بضعة أعوام وأصبح همام رجلاً، تخطى عمره الثمانية عشر وأصبح مسئولاً عن المنزل، فالجد أصبح كهلاً لا يخرج من المنزل سوى للصلاة، والجلوس مع شيوخ القرية يتباحثون في أحوال القرية ويتهامسون مع بعضهم، ولكن الشيء الغريب الذي لم يفهمه همام تلك الأموال التي كان يجدها دائمًا مع جده، بالرغم

أن القرية كلها فقيرة لا تملك أي شيء يدر دخلاً أو مالاً لكي ينفقوه. كان همام دائم التفكير في ذلك، ولكنه لم يجرؤ على سؤال جده بما يدور في خلده، فقط كان يحادث صديق عمره خالد، وخالد لا يهمه الأمر، فذلك شأن شيوخ القرية وليس شأنه هو.

أصبح همام يفضل الذهاب إلى الأقصر لفترات متقاربة، ويقضي فيها أوقات كثيرة، كان يشعر أن مكانه هناك في الأقصر، وليس في القرية، ففي الأقصر أصبح له الكثير من المعارف والأصدقاء، بل أصبح عنده الكثير من المثقفين والمتعلمين الذين يجالسهم على المقهى الثقافي القريب من النيل، حيث يجتمع العديد منهم يتناقشون ويتحاورون في الشعر والأدب والتاريخ.

في الزيارة الأخيرة وجد شخصًا جديدًا انضم إلى المقهى ينصت إلى حوارات المثقفين، لم يكن مصريًا، بدا من ملامحه وملابسه أنه أجنبي، يرتدي قبعة انجليزية بلونها الأسود، ويمسك بيديه البايب المشتعل طوال الوقت، وله طقوسه أثناء جلوسه في ذلك المقهى، كان قليل الكلام كثير الإنصات للجميع.

اقترب همام من مسعود أفندي رفيقه وصديقه المقرب، الذي كان دائم الجلوس في ذلك المقهى، ويعلم كل شيء عن رواده، وكان رواد المقهى يطلقون عليه لقب مسعود أفندي عمدة المقهى.

أمسك همام بيد مسعود أفندي قائلاً:

- من هو ذلك الشخص الذي يجلس هناك أمام المقهى دون أن يجلس معه أحد مسعود أفندي؟

نظر إليه مسعود أفندي قائلاً:

- من تقصد يا همام؟

أجاب همام وهو يشير بيديه نحو ذلك الرجل الأجنبي قائلاً:

- هذا الرجل الذي يدخن البايب ويجلس بمفرده هناك.

ابتسم مسعود أفندي قائلاً:

- إنه مستر جيمس يا همام، إنه حديث الإقامة في الأقصر وفي المقهى أيضًا.

نظر إليه همام قائلاً:

- وماذا يعمل مستر جيمس يا مسعود أفندي؟

أجاب مسعود أفندي قائلاً:

– إنه مفتش آثار انجليزي الجنسية، يعمل على التنقيب في وادي الملوك هناك على الشاطيء الغربي من النيل، ولكنه رجل شديد الذكاء أيضًا.

شعر همام أنه وجد ضالته التي يبحث عنها منذ سنين، فمستر جيمس ربما يحمل إجابات كثيرة حول الأسئلة التي تدور في خُلده، وربما يتعلم منه الكثير، ولكن هناك مشكلة، كيف يمكن أن يتحاور معه ويفهمه وهو لا يعرف شيئًا عن الإنجليزية؟.

التفت همام إلى مسعود أفندي قائلاً:

– كيف تتفاهم معه يا مسعود أفندي؟

ابتسم مسعود أفندي قائلاً:

– إنه يتحدث العربية جيدًا ولكن بطريقة ركيكة، ولكنك تستطيع أن تفهم حديثه ويفهم حديثك جيدًا.

في تلك اللحظة شعر همام أن مستر جيمس هذا قدره، وأن ما يحدث له منذ ما قالته تلك المرأة العجوز ليس محض صدفة، بل

هناك شيء ما ينتظره في المستقبل، وعليه أن يتعرف على مستر جيمس.

أمسك همام يد مسعود أفندي قائلاً:

– أريدك أن تقدمني له يا مسعود أفندي حالاً.

تعجب مسعود أفندي من طلب همام قائلاً:

– ولماذا يا همام؟ إنه رجل انجليزي؟

لم يتحمل همام الانتظار وكثرة تعجبات مسعود أفندي من طلبه بتقديمه إلى مستر جيمس، فتقدم همام نحو مستر جيمس، وقف أمامه لبرهة حتى نظر إليه مستر جيمس بتعجب منتظرًا حديثه، فكان رد فعل همام سريع حيث أجاب على تلك النظرة قائلاً:

– أنا همام وأنت مستر جيمس.

فأجاب مستر جيمس قائلاً:

– أهلاً همام، هل أستطيع أن أقدم المساعدة لك؟

فأجابه همام قائلاً:

– نعم تستطيع ذلك بأن أكون صديق لك مستر جيمس.

تعجب مستر جيمس من جرأة همام، كان همام يبدو صغير السن لم يتعد عشرين عامًا، ومستر جيمس في منتصف الثلاثينيات، ولا يوجد سبب قوي ليكونا أصدقاء، ولكنه لم ينكر إعجابه بجرأة همام، فأجابه قائلاً:

– اجلس يا همام وحدثني قليلاً، لماذا تريد أن تكون صديقي؟

جلس همام بجواره وهو ينظر في عينيه قائلاً:

– أنا أسكن في قرية تقع في حضن جبل المغاوير، على مسيرة يوم ونصف من الأقصر في الناحية الغربية، وهي قرية صغيرة تضم بعض العائلات، لا يتعدى سكانها مائة شخص، توفي والدي وأنا صغير لم أتخط عامي الثامن، ورباني جدي الشيخ يوسف وأمي، فمنحاني كل جهدهم ووقتهم لكي أتعلم وأقرأ الكثير من الكتب، قرأت الكثير من الكتب حول التاريخ الفرعوني، ولكن هناك العديد من الأسئلة التي مازلت أبحث عن إجابات لها حتى الآن.

أجابه مستر جيمس بهدوء وهو يدخن البايب الخاص به قائلاً:

– مازلنا نجهل الكثير عن تلك الحضارة، فكل يوم نجد شيئًا جديدًا يجعلنا نعتقد أننا مازلنا في بداية الطريق، ولذلك سوف تجد

الكثير من الألغاز لم نكتشف حلولها بعد... ولكن أخبرني يا همام، أظن أن قريتك قريبة من وادي الملوك، فلابد أنك شاهدت شيئًا ما بجوار قريتك قد يعود للفراعنة؟.

تلعثم همام في الإجابة لأنه تذكر تلك التماثيل التي رأها في يد جده وفي يد الشيخ عثمان، لكنه أجاب قائلاً:

– لا لم أرَ شيئًا، ربما هناك في أعلى الجبل، لكني لم أشاهد أي آثار بالقرب من قريتي.

كان الحوار بين مستر جيمس وهمام شيق، لدرجة أن همام جلس يحاوره طوال الليل، أخبره مستر جيمس الكثير عن حياته في انجلترا ثم حياته في القاهرة في المتحف المصري، ثم قدومه إلى الأقصر وما يحاول أن يكتشفه في ذلك الوادي، والحكايات التي يسمعها من المصريين عن اللعنات وحالات الموت المفاجيء.

شعر جيمس أن همام صديق وقارئ جيد، وبالرغم أنه مازال صغيرًا لكنه ذكي وحكيم في تصرفاته، وكانت البيئة الصحراوية وذلك الجبل يعيشان بداخله وليس في كلماته فقط.

خلال إقامة همام في الأقصر لم يكن يفارق مستر جيمس، بل كان يقضي معه معظم الوقت، يستمع إليه يحكي عن حكايات التاريخ وعن ماذا يحاول أن يجده.

الأب

لم يعد الذهاب والإياب إلى الأقصر معتمدًا على مواعيد القافلة التي تخرج من القرية، فهمام أصبح يغرد خارج السرب، حيث شعر أن فكره وعقله هناك في الأقصر مع رفاقه في ذلك المقهى الذي يضم الكثير من المفكرين والأصدقاء، خاصةً مستر جيمس، كان همام دائمًا يجلس وحيدًا متأملاً، يخرج إلى الصحراء ليستمع إلى صوتها، ويتأمل النجوم المتلألئة المنتشرة في السماء الصافية، ربما يجد بعض الإجابات التي لا يجدها داخل كل تلك الكتب الموجودة بغرفته في هذا المنزل البسيط.

لا شك أن دخول مستر جيمس في حياة همام قد غير الكثير من مفاهيمه وإدراكه للأماكن الكثيرة خارج دائرته البسيطة، فمستر جيمس كان البوابة الرئيسية لهمام لكي يشعر أن هناك أشياء أخرى كثيرة تدور في فلك الإنسان في العموم أكثر مما يدركه همام، حتى بقراءته كل تلك الكتب.

أثناء سفر همام من الأقصر عائدًا إلى قريته؛ قرر المبيت بجوار تلك المجموعة من النخل المترامية في منتصف الطريق ما بين الأقصر والقرية، حيث إنها قريبة من منبع ماء عذب، يستطيع النوم بجواره والراحة أيضًا، قرر همام قضاء ليلته بجوار البئر يتأمل السماء، خاصةً أن الليلة السماء صافية، أخذ يتذكر كلمات مستر جيمس عن طموحه في كشف جديد عن حضارة الجدود في وادي الملوك.

شعر همام أثناء جلوسه أن هناك شخص ما يقف في الظلام ولا يقترب منه، فقط يقف في حالة ثبات، ظن همام أنه ربما عابر سبيل يبحث عن ماء أو مساعدة، فلم يجد مفر أن يصيح على ذلك العابر قائلاً:

– أهلاً بك يا رجل، تفضل واجلس نتشارك العشاء إذا كنت غريب عن المنطقة.

لم يتحرك هذا الرجل من مكانه في الظلام، ولم يرحب أو يرد بأي كلمة على دعوة همام للجلوس والمشاركة في الطعام.

تعجب همام لذلك، فكرر الدعوة أكثر من مرة، ولكن لم يجد أي استجابة من ذلك الشخص، قرر القيام والاقتراب من الرجل ليعرف لماذا لا يقترب منه، ولكنه كان كلما اقترب من الرجل يبتعد، وتبقى نفس المسافة دون أن يتحرك من الظلام.

بدأ الشك يزداد في قلب همام من هذا الرجل، فأسرع بخطواته تجاهه، اقترب من وجه الرجل الذي كان يبتسم له، شعر همام أن تلك الملامح ليست غريبة عنه بل يتذكرها. توقف لحظة وهو ينظر إلى ذلك الرجل بابتسامته حيث نطق همام بكلمة تلقائية قائلاً:

– أبي!! هل أنت أبي؟!

لم يشعر همام بنفسه حيث انطلق نحو الرجل، ولكن فجأة اختفى ذلك الشبح بابتسامته ولم يجد همام شيئًا حوله، فقط ظلام الليل يكسو على حيرته وفزعه مما شاهده في تلك الليلة حتى عاد إلى مخدعه.

عندما عاد همام إلى القرية لم يرغب في الحديث عما شاهده في تلك الصحراء، فربما كان ذهنه وقتها مشوشًا وكل ما شاهده

عبارة عن خيالات وأوهام نتيجة فترات التأمل الطويلة التي يقضيها في تلك الصحراء.

شعر همام أنه لا يرغب أن يتحدث مع أحد أو يعود إلى الأقصر مرة أخرى، بل أراد أن يتعمق أكثر في قراءة الكثير من الكتب عن حضارة أجداده، ومن هي الملكة التي يمكن أن يكون لها تاريخ في تلك المنطقة، لم يكن معه في تلك الخلوة أحد سوى صديقه خالد؛ الذي شعر أن همام بدأ يتحدث بطريقة مختلفة، عسيرة في فهم ماذا يريد من وراء تلك الأفكار.

مرت الأيام والأسابيع حتى إنه بدأ ينسى رؤية أبيه في تلك الصحراء، ولكنه في ليلة ما كان عائدًا من طريق الجبل، حيث تعود أن يطلق العنان لأفكاره عندما تكون السماء صافية، حتى أنه نسي الوقت، فلما تذكر خوف أمه دائمًا عليه، خصوصًا عندما يقضي تلك الليالي بجوار الجبل، أثر العودة إلى المنْزل، ولكن عندما عاد إلى المنْزل وجد أمه وجده في سبات عميق، وعند مروره في صحن المنْزل شاهد شخص ما يجلس على المقعد الحجري، توجس خيفة ولكنه أراد أن يقترب من هذا الشخص الغامض، عندما اقترب همام أكثر اكتشف أنه أبيه بتلك الابتسامة

التي كان يجدها عند عودته من الكُتَّاب عندما كان صغيرًا. أراد همام أن يقترب أكثر لأنه يشعر بالحنين إليه وإلى ابتسامته، ولكن عندما اقترب منه اختفى ذلك الشبح، وترك همام وحيدًا في ظُلمة صحن المنْزل.

أدرك همام أن ما يشاهده ليس وهم ولا خيالات بل حقيقة، ولكن السؤال هنا لماذا بدأ يظهر ذلك الشبح لهمام ليذكره بأبيه؟ وماذا يريد من همام؟ وما الحكمة من كل ذلك؟ ولكن العجيب أن أبيه في تلك المرة لم يكتفِ بالابتسامة فقط، بل أشار إلى حجرة جده الشيخ يوسف وهو حزين، كإشارة لشيء ما قبل اختفائه بلحظات بسيطة.

شعر همام في تلك الليلة أن ما يحدث ليس من قبيل الصدفة، تلك الرؤيا لوالده هناك رسالة ما خلفها يريد أن يوصلها الأب له، ولكن ما هي تلك الرسالة وما المقصود بها؟.

شعر همام في الأيام التالية لتلك الليلة أنه يريد أن يتحدث مع أحد لكي يخبره بذلك، فلم يجد سوى جده ليخبره بتلك الرؤيا لعلة يجد تفسير لها.

أثناء عودة همام بعد صلاة العشاء من المسجد وجد جده يجلس في صحن البيت، يسبح في حالة من السكون الروحاني، جلس همام بهدوء بجوار جده دون أن يتحدث بشيء، نظر إليه جده بابتسامة رقيقة قائلاً:

– ماذا يحيرك يا همام؟ أخبرني بما يشغل بالك.

تعجب همام عندما ألقى جده هذا السؤال عليه، فكيف شعر بما يفكر فيه، أجابه قائلاً:

– كيف عرفت يا جدي أني في حيرة من أمري؟

أجابه الجد بابتسامة قائلاً:

– تلك حكمة وخبرة السنين يا ولدي، وليس لي غيرك كي أشعر بما يشعر به، فقط أخبرني بما يدور في ذهنك.

أجاب همام بتلقائية قائلاً:

– لقد رأيت أبي يا جدي.

أجابه الجد بتعجب ودهشة قائلاً:

– أين رأيته يا ولدي؟! احكِ لي كل شيء بالتفصيل.

بدأ همام يخبر جده بما شاهده في الصحراء، حتى وصل في نهاية الأمر عندما شاهده في صحن المنزل وهو يشير إلى غرفة الجد وهو حزين.

كان الجد منتبهًا لحديث همام، وعندما سمع أن والد همام قد أشار إلى غرفته شعر بالفزع والحزن، ولم ينطق بشيء سوى أنه قال لهمام:

- لله الأمر من قبل ومن بعد يا همام، لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا يا ولدي.

شعر همام في تلك اللحظة أن جده لم يفسِّر له شيئًا بل زاد الأمر تعقيدًا، لِمَ كل هذا الفزع والحزن الذي رسم ظلاله على ملامح جده؟ وما علاقة ما يحدث بالجد؟! الأمر أصبح أكثر تعقيدًا.

أصبحت الأيام تمر ثقيلة وكئيبة وهمام ليس له رغبة في القراءة أو حتى الجلوس مع خالد، حتى جده أصبح أكثر عُزلة وبدأت الشيخوخة تزحف نحوه سريعًا، كأن أيامه في تلك الحياة أصبحت معدودة بعد تلك الرؤيا.

في تلك الليالي الصيفية كان همام يشعر دائمًا بحنين نحو الجبل، يقضي الكثير من الليالي يتأمله ويشعر أن هناك شيئًا ما يربطه بهذا الجبل، وأنه لا يخشى الصعود إليه، بل يشعر بأنه سعيد وهو في كنفه، وفي إحدى الليالي وهو في حضن الجبل شاهد أباه للمرة الثالثة، لم يتحرك همام من مجلسه بل ظل ينظر إليه وهو في حالة لا مبالاة، ثم صرخ في وجه أبيه قائلاً:

– ماذا تريد مني؟ أنت لست أبي، أنت تريد دفعي للجنون ولا أعلم لماذا، فابتعد واغرب عن وجهي.

لكن ذلك الشبح لم يختفِ بل كان يشير إلى الجبل بيده وهو ينظر إلى همام، كأنه يكمل تلك الرسالة التي بدأها منذ شهور وهمام لا يدرك معناها حتى الآن، ثم اختفى الشبح وهمام مازال جالسًا لم يتحرك من مكانه.

مستر جيمس واللغز

شعر همام أن كل تلك الأحداث التي حدثت سوف تسبب له الجنون بلاشك، وخاصة أنه لا يجد من يستطيع أن يستوعب حديثه وأفكاره التي تجول في عقله، والألغاز التي لا يجد لها إجابة، فقط مكوثه في القرية أكثر من ذلك سوف يؤدي به إلى الجنون، ولكنه في غمار كل هذا تذكر مستر جيمس، وطريقته في الحوار والتفكير، لذلك قرر همام العودة إلى الأقصر لكي يتحدث مع صديقه مستر جيمس في ذلك، ربما يجد لديه الحل لكل ما يحدث له منذ الصغر.

عندما وصل همام إلى الأقصر لم ينتظر حتى المساء ليذهب إلى المقهى، ولكنه ذهب على الفور وجلس على طاولة مستر جيمس المفضلة، حتى غابت الشمس وزحف الليل بنجومه على جو الأقصر الصيفي.

في المساء شاهد همام مستر جيمس قادم من بعيد، شعر بالسعادة لرؤيته، كذلك مستر جيمس أظهر ترحابه بهمام قائلاً:

– صديقي العزيز همام، الذي يظهر في حياتي فجأة ويختفي فجأة أيضًا مثل أشباح الصحراء.

ابتسم همام قائلاً:

– نعم مستر جيمس، مثل أشباح الصحراء، ولكني عُدت إليك مرة أخرى لكي استمع إلى نصيحتك في موضوع ما.

ارتسمت علامات التعجب على ملامح مستر جيمس قائلاً:

– ما الأمر يا همام، أخبرني بماذا حدث لك؟

بدأ همام يروي قصته منذ موت أبيه، وماذا قالت له السيدة العجوز عن الملكة والجبل واللعنة التي لا يعلم عنها شيئًا، حتى ظهور أبيه بهذا التسلسل، وما هي الرسالة من كل تلك الأحداث، وبما يريد أن يخبره أبيه، وهو لا يستطيع أن يفهم تلك الرسالة، ولكنه لم يستطع أن يخبره بقصة التماثيل التي شاهدها مع جده أو مع الشيخ عثمان، خوفًا أن يعلم هذا السر أحد آخر فيسبب المشاكل لأهل قريته.

نظر مستر جيمس إلى همام ثم أشعل البايب الخاص به وأخذ ينظر أمامه في حالة من التفكير والصمت العميق. مرت دقائق الصمت على همام كأنها دهر كامل، وهو ينتظر ماذا سوف يقول له مستر جيمس على كل تلك الأحداث، ولكنه لم يتحمل كل هذا فنظر إلى مستر جيمس قائلاً:

- أخبرني مستر جيمس لماذا كل هذا؟ ومن هي تلك الملكة؟ ولماذا يخشى أهل القرية من اللعنة؟

أجابه مستر جيمس قائلاً:

- ليس لدي إجابة واضحة حول ذلك، فالتاريخ لم يتحدث كثيرًا حول الملكات، أيضًا تلك المنطقة التي تقع فيها القرية وذلك الجبل لم يذكر عنها شيئًا في التاريخ أو حتى في الكتب التي قرأتها عن الحضارة الفرعونية، ربما في ذلك الجبل شيء ما مرتبط بملكة ما لم نكتشفها حتى الآن، لكن العجيب في الأمر أن الفراعنة لم يسكنوا تلك المناطق، بل هي قريبة إلى حد ما من مقابر الملوك والملكات في ذلك الوادي.

سكت همام قليلاً ثم قال:

– وماذا عن اللعنة التي يخشاها أهل القرية مستر جيمس؟

أجاب مستر جيمس قائلاً:

– لقد اكتشفنا الكثير من الكتابات الهيروغليفية في المقابر، والتي تخبرنا أن تلك المقبرة لديها الحماية والقوة من خلال سحر الكهنة وتسخير الجان لهذا الأمر، وأن من يفتح تلك المقابر سوف يصاب باللعنة، وسيموت وتذهب روحه إلى الجحيم ولن تجد الطريق إلى الحياة الأبدية، والكثير من الجُمل الترهيبية والتخويف، كان الفراعنة يكتبوها على أبواب المقابر لترهب وتبعد من يجرؤ على سرقة المقابر من اللصوص والباحثين عن الكنوز، ولكني يا همام لا أؤمن بذلك، سواء باللعنة أو السحر، فأنا عالم أؤمن بالأشياء المادية التي أشاهدها فقط، ولا أعتقد بالتخاريف التي تصل إلى أذاننا من هنا وهناك.

أجابه همام قائلاً:

– لقد ازدادت حيرتي أكثر بكلامك هذا مستر جيمس، ولكن ماذا عن رؤية أبي، وماذا يريد مني؟

رد مستر جيمس قائلاً:

– لا أعلم ماذا يريد منك، ولكني دعني أخبرك بشيء مهم ومرتبط بكل الأحداث؛ وهو الجبل، فالكل يشير إلى الجبل، فبلاشك أن اللغز في القرية، وحل اللغز في الجبل يا همام.

شعر همام في تلك اللحظة أن مستر جيمس بتفكيره المنطقي بدأ في إظهار بعض النقاط التي لم يلحظها من قبل، فالجبل هو السر، والكل يشير إلى الجبل، إذن الإجابة هناك في الجبل وليست في الأقصر.

شعر مستر جيمس بصدى كلامه داخل عقل همام، وأن همام بدأ ينظر إلى هذا الجبل من مقعده الذي يجلس عليه بجوار مستر جيمس، بل شعر مستر جيمس أن هناك أيضًا مغامرة شيقة وربما اكتشاف يغير الكثير من مجريات التاريخ، ويجعله علامة بارزة في علم الآثار المصرية.

نظر مستر جيمس إلى همام قائلاً:

– هل تريدني أذهب معك إلى هذا الجبل؟

أجابه همام بابتسامة ساخرة قائلاً:

- هذا من رابع المستحيلات يا مستر جيمس، فشيوخ القرية لن يسمحوا حتى أن تطأ قدميك القرية، فما بالك بذلك الجبل الذي يحمل كل تاريخهم وجدودهم، بالطبع لن يسمحوا لي بذلك، ولكن دعني أذهب وأرى ماذا يحدث في هذا الجبل.

أجابه مستر جيمس وهو يهز رأسه قائلاً:

- حسنًا... فلتذهب أنت لترى ما في داخل هذا الجبل، ولكن أرجوك سجل كل ما تراه، وإذا وجدت بعض الكتابات الهيروغليفية فلترسمها بدقة ثم هاتها لنرى بماذا تخبرنا تلك الكتابات عن من يسكن ذلك الجبل، وما هي تلك اللعنة السخيفة التي تسكن قريتكم يا صديقي العزيز.

أجابه همام قائلاً:

- حسنًا مستر جيمس سوف أفعل ذلك.

الجبــل

عندما عاد همام إلى القرية لم يكن قد اتخذ القرار بالصعود إلى الجبل، فالمشكلة لم تكن بداخل همام، المشكلة أن همام يدرك أن شجاعته ليست كافية لكي يذهب إلى هذا الجبل، فالقرار لم يكن بتلك السهولة لأنه لم يصعد هذا الجبل من قبل، فالتأمل بجواره يختلف تمامًا عن الصعود إلى قمته لكي يحاول أن يجد شيئًا ما يجعله يدرك ماذا يحدث من حوله، الكل كان يخشى هذا الجبل والصعود إليه، وكان بالنسبة له شيئًا مُحرمًا من بعد وفاة والده، كان يتذكر علامات الفزع على وجه أمه عندما تعلم أنه ذهب مع أقرانه ليرعوا الغنم بجوار الجبل، كانت تنهره وتبكي قائلة:

– يكفيني ما حدث لوالدك، ليس لي أحد سواك يا همام، أنا أعيش من أجلك أنت حبيبي فلا تحرمني منك.

يتذكر همام كلمات أمه، وهذا يجعله في حيرة أخرى، فالصعود إلى الجبل ليس مجرد رحلة بحث عن حقيقة، ولكن ربما تكون

رحلة بدون عودة، مثل أبيه عندما صعد إلى هذا الجبل منذ أكثر من عشر سنوات ولم يعد، ولم يجدوا له جثة، حتى إنه لم يكن مثل باقي أقرانه يستطيع أن يذهب إلى مدافن القرية؛ يبكي على قبر والده ويتحدث إليه مثل باقي الأطفال عندما يشعر بالوحدة والحزن، فقط مرت تلك السنوات، لا يعلم كيف مات والده، أو كيف اختفى، كل ما يعلمه أن والده صعد إلى هذا الجبل ولم يعد إلى المنْزل مرة أخرى.

حتى ولو اتخذ قراره بالصعود إلى الجبل؛ فكيف يستطيع أن يخبر أمه وجدَّه بهذا، فالحال ليس مثل ذي قبل، فالأم تبحث عن زوجة لهمام لترى أحفادها في المنْزل الخالي، تريد أن تسمع ضحكات أطفال همام تمرح وتلعب في المنْزل، تريد أن يهرب الحزن من هذا المنْزل بعد كل تلك السنوات من الحزن والدموع المتحجرة في عيونها، بالرغم من حالة الصمت التي تعيشها طوال الوقت.

لم يستطع همام أن ينسى أيضًا جده؛ الذي أصبح كهل، وتخطى السبعين من العمر، حركته أصبحت بطيئة، يخرج فقط من أجل الصلاة في المسجد، ثم يعود إلى المنْزل ليعيش في خلوته كأنه ينتظر شيئًا ما سوف يحدث، لا أحد يشعر بذلك سوى الجد فقط، دون

أن يخبر أحدًا بما يدور أو يشغل باله، فقط ينظر إلى همام على أنه ما تبقى له من حطام تلك الحياة، فالحياة لم تمنحه الكثير من السعادة، بل منحته الكثير من الألم والحزن، فكان همام يسمع نحيبه وبكاءه طوال الليل على ابنه الذي توفي دون حتى أن يضمه إلى صدره في أخر لحظات حياته، بل خرج كي لا يعود إلى حضنه مرة أخرى، كأن هذا الجبل ناداه مثلما يناديه الآن لكي يصعد إليه، كأن اللعنة لتلك العائلة فقط دون غيرها من أهالي القرية، فكيف يستطيع أن يخبره بذلك.

مكث همام في منْزله بضعة أيام ينظر إلى هذا الجبل من خلال نافذته، ثم يصعد إلى أعلى المنْزل في الليل لكي يتأمل ظلمة الجبل القابع هناك يحمل الغموض والأسرار، ومصير همام أيضًا كما اختفى أبيه من قبل في متاهات هذا الجبل الملعون للأبد، ولكن على همام أن يتخذ قراره في النهاية. في نهاية الأمر قرر همام أن يواجه مصيره في هذا الجبل، لا مناص من مواجهة القدر الذي ينتظره، ولكن دون أن يخبر أحدًا، فقط سوف يذهب ثم يعود دون أن يخبر أحدًا.

في الصباح الباكر خرج همام من المنْزل يحمل خلف ظهره حقيبة صغيرة بها الكثير من الأوراقِ والأقلام كما نصحة مستر جيمس، لكي يسجل كل شيء يلاحظه أو يجده من كتابات، ربما تحل ذلك اللغز. خرجَ من باب المنْزل ينظر إلى الجبل كأنه يشاهده لأول مرة، أو كأنه يشعر أن الجبل ينتظره هو أيضًا. توقف همام قليلاً أمام منْزله حيث بدأ يشعر أن تلك الكلاب الضالة التي تعيش بين طرقات القرية بدأت تظهر وتتجمع أمام المنْزل، تجلس على مسافة قريبة من المنْزل في حالة هدوء دون نباح أو أي أصوات.

كانت في البداية ثلاثة أو أربعة كلاب ضالة تقف أمام همام، وعندما قرر همام أن يسير في طريقه نحو الجبل؛ بدأت تلك الكلاب تسير خلفه بهدوء، وكلما مرَّ همام على طريق ما يجد بعض الكلاب تظهر لتنضم إلى باقي الكلاب التي تسير خلفه في هدوء وعلى مسافة منتظمة، شعر همام أن هناك شيئًا غريب يحدث، وأن تلك الكلاب تتجمع بطريقة ليست طبيعية، وعندما نظر خلفه وجد الكثير من الكلاب تسير وراءه كأنها مغيبة، أو

شيء ما يسيطر عليها لكي تفعل ذلك، أو ربما لتجبر همام ألا يفكر في الرجوع إلى المنْزل والتراجع عن صعود الجبل.

عندما وصل همام إلى أطراف القرية نظر خلفه ليودع قريته، ربما لن يعود إليها مرة أخرى، لكن عندما نظر خلفه عاد إليه التساؤل حول سبب وجود كل تلك الكلاب تسير خلفه وماذا تريد منه، عندما حاول أن يقترب منها؛ شعر أنها سوف تنبح وتعلن غضبها ورفضها محاولته العودة إلى القرية مرة أخرى، وعندما عاد يواصل طريقه إلى الجبل مرة أخرى، توقفت الكلاب عن متابعته وعادت تنتشر في القرية كأن شيئًا لم يحدث.

استمر همام في السير نحو الجبل وهو يقرأ الكثير من القرآن الكريم ليكون حصنًا له من كل شر، سواء من الجن أو الإنس، وعندما بدأت صخور الجبل تظهر له في الأفق خرجت له السيدة العجوز فجأة من خلف إحدى الأحجار الضخمة، حتى أن همام فزع واضطرب من المفاجأة وسقط على الأرض من الخوف.

ابتسمت السيدة العجوز لهمام واقتربت منه قائلة:

- اصعد يا همام ولا تخف، فهناك لن تحدد مصيرك أنت فقط... افعل الصواب.

كانت تشير نحو الجبل حيث أكملت حديثها بضحكات وصرخات جعلت همام في حالة ذهول، فهذه المرة الأولى التي تتحدث إليه تلك العجوز، إذن هي ليست كما أخبره الجد عجوز شمطاء لا تعي شيئًا مما تقوله، والجنون يسيطر عليها منذ زمن بعيد. تركته العجوز وعادت إلى طريقها بين الأحجار الضخمة، وكان صدى ضحكاتها وصرخاتها يتردد بين جنبات الجبل.

شعر همام أن هناك أشياء كثيرة تتغير حقيقتها التي عاش مؤمن بها طوال عمره، كأنه يجب أن يولد من جديد لكي يفهم ماذا يحدث له.

عاود همام سيره إلى الجبل وإن اختلف شعوره بعدما تحدثت إليه تلك المرأة العجوز، فلابد أن لحديثها دلالة لا يدركها الآن، لكنه ربما يستطيع تفسيرها بعد ذلك.

عندما اقترب من بداية طريق الصعود إلى الجبل شعر أن هناك شيئًا ما يراقبه، تلفت همام حوله فوجد ذئب أسود اللون يقف أعلى صخرة قريبة منه ينظر إليه دون أن يتحرك، شعر همام بالخوف، لكنه بعد برهة شعر أن هذا الذئب لا يريد أن يهاجمه، بل يراقبه فقط من بعيد.

بدأ همام يصعد إلى الجبل وهو يشعر أن طريق الصعود هذا ربما لم تمسه قدم إنسان منذ فترة بعيدة، فليس هناك أي علامات لأقدام بشرية في تلك الرمال، كأنه هو الشخص الوحيد الذي يصعد إلى هذا الجبل منذ فترة طويلة.

شعر همام أنه كلما واصل صعوده نحو قمة الجبل؛ ظهرت الكثير من الذئاب السوداء تراقبه، أو كأنها تريده أن يسلك طريق ما نحو شيء ما في قلب هذا الجبل، لم يكن همام يعرف أي شيء عن هذا الجبل، فقط ذهب يكتشف ماذا يوجد بداخله، ترك قدميه تسيران ليكتشف ما في باطن الجبل.

بالفعل صعد همام إلى أعلى الجبل، قبل قمته بقليل، وجد حافة يقابلها كهف ضخم مُظلم لا يظهر منه شيء، كان الظلام دامسًا داخل هذا الكهف.

التفت همام حوله واقترب من الحافة ليشاهد قريته تبدو صغيرة ومنازلها متناثرة، كان يستطيع أن يرى أهل قريته وهم يسيرون خلال طرقات القرية، شعر أن هناك من كان يقف على تلك الحافة يراقب القرية ويعلم كل شيء عنها، بل ربما ما حدث من كل تلك الأحداث له سبب وجيه، وأن المرأة العجوز كانت تعي ما تقول، فمن يقف على الحافة يستطيع أن يشاهد الكثير من الأحداث التي تحدث داخل القرية، وكل ما سمعه أو شاهده لم يكن وليد الصدفة.

أخرج همام من حقيبته قنديل صغير، أشعله لكي يدخل الكهف يكتشف ما بداخله، ربما يجد شيئًا ما يساعده على حل هذا اللغز. سار ببطئ داخل الكهف خوفًا من أن يجد ذئب داخله، ولكن كانت المفاجأة التي وجدها همام داخل الكهف، والتي لم يتخيل أن يجدها هناك.

الكهف

عندما سار همام بضع خطوات داخل الكهف، وضوء القنديل يسبقه بخطوات يضيء له الطريق؛ كانت المفاجأة، حيث ظهرت له بعض الأعمدة المزينة من الحجر الجرانيتي، المنحوتة بشكل رائع، مثل أعمدة المعابد التي شاهدها في الأقصر، كانت تلك الأعمدة مزينة برسومات وأشكال فرعونية ونقوشات مازالت في حالة رائعة، كأن الزمن لم يمر عليها، أو كأنها قد بُنيت بالأمس فقط.

في تلك اللحظة شعر همام أن الخوف قد زال من قلبه، وأن الفضول واللهفة على تفحص المكان هو الشعور الذي يسيطر عليه، تجول ببطئ بجوار الحائط الداخلي للكهف ليشاهد تلك الرسومات الزاهية، والتي تزين كل جدران الكهف، والكتابات الهيروغليفية التي تقع أسفل تلك الرسومات.

عندما اقترب همام من منتصف الكهف وجد تمثال ضخم على هيئة امرأة بملامح دقيقة، خُيل إليه أن عيني التمثال تلمعان كأنه لإنسان حقيقي حي، حتى أنه فزع وكاد يهرب من المكان لولا أن سلط عليه القنديل ليرى إذا كان إنسيًا أم من الجان.

عندما سلط همام الضوء عليه وجد أنه تمثال لامرأة، تبدو ملامحها مختلفة قليلاً عن تلك النساء اللاتي شاهدهن على جدران المعابد في الأقصر، ولكنها في الواقع كانت رائعة الجمال، بشعرها الأسود وعينيها اللامعتين، بدا التمثال كأنه يحمل روحًا بداخله لأن ألوانه مازالت زاهية وحديثة، كان التمثال يبدو أنه لامرأة قوية ذات شخصية ولها سلطان، ربما تكون ملكة أو شخصية عظيمة الشأن، اكتشف أيضًا الكثير من الحروف الهيروغليفية التي تزين التمثال من جانبيه، كأنه يحكي قصة ما، والغريب أن التمثال أمامه شيء مثل الطاولة أو مذبح، ربما كان في وقت ما يُقدم لهذا التمثال القرابين، ولكن السؤال هنا لماذا تُقدم القرابين لامرأة، بالرغم أنه عادة ما تقدم القرابين للألهة في الحضارة الفرعونية وليست للملوك أو الملكات؟! من هي تلك المرأة؟ ولماذا معبدها داخل

كهف في جبل في قلب الصحراء، بعيدًا كل البعد عن منطقة نفوذ وسلطان الملوك في منف في العصور القديمة؟.

كان ما يشاهده شيئًا عجيبًا، فما وجده داخل هذا الكهف يطرح العديد من الأسئلة، شعر بأن الزمن قد عاد به إلى الوراء آلاف السنين، وأن الكثير من العامة من أجداده الفراعنة قادمين إلى ذلك الكهف يمرون من حوله ليقدموا القرابين إلى تلك المرأة. شعر همام أن الوقت يمر بسرعة داخل هذا الكهف، ويجب عليه العودة مرة أخرى في اليوم التالي ليسجل كل ما يشاهده،

خرج مسرعًا قبل أن تغرب الشمس؛ عائدًا إلى القرية قبل أن تشعر أمه وجده بغيابه الطويل، أثناء هبوط همام من الجبل راوده شعور بالخوف، فربما لا تسمح له تلك الذئاب بالعودة إلى القرية، وربما تهاجمه وتمزقه ويموت فوق هذا الجبل مثل أبيه، ولكن العجيب أن الذئاب لم تتحرك من مكانها، بل ظلت تقف على الصخور تراقبه من بعيد دون أن تعيق طريقه في الرجوع إلى القرية مرة أخرى.

عندما اقترب همام من القرية، وظهرت المنازل بظلالها من بعيد، والأطفال يلهون في طرقات القرية؛ شعر بالسعادة الغامرة، وأخذ

يقفز في الهواء من الفرح لأنه عاد من الجبل دون أن يحدث له مكروه، وأيقن همام أن ما في الجبل لا يريد أن يؤذيه، بل يريد منه أن يكتشف شيئًا ما داخل هذا الجبل، وقد تم اختياره هو من أجل ذلك. لم يخبر همام أحد بما شاهده في ذلك الكهف، ولكنه قرر أن يعود في اليوم التالي لينقل تلك الحروف والكلمات الهيروغليفية والمشاهد المرسومة على جدران الكهف من الداخل.

في اليوم التالي عاد همام إلى الكهف يحمل قنديل أكبر، والكثير من الأوراق والأقلام، لكي يرسم ما يشاهده، وبالفعل بدأ في محاولة رسم كل ما يشاهده، ولكن شيء ما لفت انتباهه، فمعظم الرسومات كانت لتلك المرأة، وأمامها الكثير من العامة يركعون لها، ومن فوقهم طيور تطير بأشكال مخيفة، كذلك بعض تلك الذئاب السوداء التي شاهدها أثناء صعوده الجبل وجدها على بعض الحوائط، ولكنه لم يفهم ما المقصود بهذا.

في اليوم الثالث له داخل الكهف بدأ همام يشعر بأن هناك شيئًا ما يراقبه، كأن تلك اللوحات المنقوشة والمرسومة داخل الكهف تنظر إليه، فعندما يقترب منها يجدها مجرد رسومات فقط، لكنه عندما يبتعد يشعر أنها تراقبه، حتى ذلك التمثال يشعر أن رأس

المرأة يتحرك لتنظر إليه وتشاهد ما يفعله من محاولة رسم ما يلاحظه من مشاهدات داخل هذا الكهف، وعندما ينظر إليها يجدها ثابتة لم تتحرك، ربما كانت أوهام أو تخيلات يشعر بها نتيجة مكوثه لفترة طويلة داخل الكهف.

أحيانًا كان همام يقترب من تمثال المرأة، كان يقترب بالقنديل من وجهها لكي يتأمل ملامحها ويتلمسها بأصابعه، كأنه يشعر أن ذلك التمثال ليس من حجر بل حي، به روح تشعر به وبوجوده داخل هذا الكهف. كان همام يشعر بجمالها وسحرها الكامن في ملامحها الجميلة التي لم يرها في امرأة من قبل، لعل قلبه شعر بتأثيرها السحري، فلم يستطع أن يقاومه، بالرغم أنه في نهاية المطاف مجرد تمثال من الحجر.

قضى همام الكثير من الوقت داخل الكهف، فقد استغرق شهرًا كاملاً يحاول رسم ما يشاهده ليذهب به إلى الأقصر، لكي يشاهده ويتفحصه مستر جيمس، لعله يجد الإجابة في كل تلك الأوراق التي رسمها همام داخل الكهف.

شعر همام بالسعادة الغامرة عندما انتهى من هذا العمل الشاق، قرر أن يرحل في اليوم التالي إلى الأقصر، لكي يمنح مستر جيمس

الفرصة كاملة لتفحص ما شاهده داخل هذا الكهف العجيب. وبالطبع لم يكن همام عالم آثار أو رسامًا محترفًا لكي يستطيع أن ينقل صورة كاملة ودقيقة يمنحها لمستر جيمس، لمحاولة تفسير كل صغيرة وكبيرة داخل الكهف، لكنه يعلم أنه فعل المستحيل ليصل إلى أقصى ما يمكن أن يقوم به لنقل ما شاهده لمستر جيمس.

في فجر اليوم التالي امتطى همام ناقته، وفي هذه المرة كان يدفع الناقة لأن تسابق الريح والزمن في الصحراء القابعة بين الجبل والوادي، حيث كانت وجهته السفر إلى الأقصر، كان قلبه وعقله قد رحلا إلى الأقصر قبل أن يصلها بناقته ليشرح لمستر جيمس ما شاهده، ويفكر كيف يمكن أن يفسر ذلك.

تفسيرات مستر جيمس

كان همام ينتظر مستر جيمس على المقهى وهو يتلهف على رؤيته لكي يخبره بما حدث له عندما صعد الجبل، وعندما شاهد مستر جيمس من بعيد لم يستطع انتظاره حتى يأتي إلى مكان مجلسه، بل شعر همام أنه مثل الطفل الذي كان ينتظر والده أو جده لأنه مُشتاق لرؤيته.

ابتسم مستر جيمس عندما شاهد همام وهو يقفز ويجري نحوه، احتضنه مستر جيمس شاعرًا بالفرح لمقابلته، قال له مبتسمًا:

– ظننت أنك لن تعود، وأن الجبل لم يسمح لك بالعودة مثل ما حدث مع والدك، ولكنك حي تُرزق وأراك أمامي بكامل هيئتك.

ابتسم همام ابتسامة طفولية قائلاً:

– نعم لقد صعدت الجبل، ولكني لم أعد من هناك بعد.

ابتسم مستر جيمس قائلاً:

– كيف يا صديقي العزيز؟

أجابه همام:

– إنها قصة طويلة، دعنا نرجع إلى المقهى لكي أخبرك بما حدث، وتشاهد ما دونته ورسمته في رحلتي إلى الجبل.

اتجه همام مع صديقه مستر جيمس نحو المقهى، جلسا وقبل أن يخرج همام أوراقه أمسك مستر جيمس يده قائلاً:

– قبل أن أشاهد أو أقرأ أي شيء، أخبرني أولاً ماذا حدث؟ وكيف كان شعورك أثناء الرحلة؟

صمت همام قليلاً كأنه يتذكر ما شاهده داخل هذا الكهف، وشعوره الغريب الذي انتابه نحو ذلك التمثال، كأنه كان ينظر إلى امرأة رائعة الجمال تقف أمامه، ولكنها لا تستطيع أن تتخلص من هذا التمثال.

أجابه همام قائلاً:

– إنها رحلة غريبة وعجيبة، شاهدت فيها أشياء لن تصدقها، وانتابتني مشاعر لا أستطيع أن أصفها لك، ولكن دعني أحكي حكايتي لك مستر جيمس.

أشعل مستر جيمس البايب الخاص به ونظر إلى همام ليخبره أنه مستعد لسماع كل تفاصيل رحلته، بالفعل بدأ همام في سرد تفاصيل الرحلة، من تردده في الصعود إلى الجبل، ثم الكلاب التي كانت تدفعه نحو طريق الجبل، ثم تلك المرأة العجوز وحديثها المثير والتي كان يعتقد في الماضي أنها مجنونة، ثم الذئاب، حتى وصوله إلى الكهف.

أثناء حديث همام كان يشعر أن الكهف أمام عينيه، فكان يصفه بدقة بالغة كأنه يراه رؤيا العين، وذلك التمثال الخاص بتلك الملكة، والطاولة الحجرية التي أمام التمثال، وشعوره نحو هذا التمثال.

ابتسم مستر جيمس لوصف همام لتمثال تلك المرأة قائلاً:

– أشعر يا همام أنك كنت في موعد غرامي في ذلك الكهف مع فتاة، وليس تمثال من الحجر!

ضحك همام كثيرًا حتى لفت أنظار رواد المقهى، نظروا إليهم بتعجب ودهشة، فنادرًا ما كانوا يشاهدون مستر جيمس وهمام يتبادلون الضحكات.

أجابه همام بعد كل تلك الضحكات قائلاً:

– لم يكن في بالي أنني أصف هذا التمثال كأنه فتاة أحببتها، أو امرأة كاملة الأنوثة في نظري.

أجابه مستر جيمس قائلاً:

– بغض النظر عن الكلاب والذئاب والمرأة العجوز؛ فكل هذا ربما يكون صدفة، فأنا لا أعتقد في هذه الأشياء، بل أقتنع بالحدث عندما يكون هناك دليل واضح مادي على صدق الرواية، أنا لا أكذبك، ولكن عقلي لا يقبل تلك الأشياء المرتبطة بالخيال والسحر، والآن دعني أولاً أشاهد ما رسمته من كتابات هيروغليفية على قاعدة هذا التمثال، ثم نرى ماذا وجدنا.

أخرج همام بعض الأوراق من حقيبته ووضعها أمام مستر جيمس، بدأ يتصفحها بهدوء وتفكير عميق، ثم أخذ يكتب في

بعض الأوراق الأخرى ملاحظات عما وجده من كلمات هيروغليفية قد رسمها همام من مشاهدته لقاعدة التمثال.

كان همام ينتظر بفارغ الصبر مستر جيمس عندما ينتهي من كتابة ملاحظاته حتى يخبره بما وجده في الكتابات الهيروغيليفية.

بالفعل عندما انتهى مستر جيمس نظر إلى همام قائلاً:

– اسمع جيدًا لما سوف أقوله الآن لتفكر فيه، ربما تربطه بشيء ما قد شاهدته في ذلك الكهف.

انتظر همام بلهفة شديدة ما سيقوله مستر جيمس، فهي ترجمة ما وجده من كتابة هيروغليفية على قاعدة التمثال. بدأ مستر جيمس في قراءة ما وجده حيث قال:

"أنا الملكة التي لم تتوج في الأرض، ولكن مملكتي في السماء، ما بين الشمس والقمر، حيث أجنحتي تحجب الشمس لينتشر الظلام عندما أريد ذلك، فالأرض والسماء ملكي، وسوف تبقى روحي مثل الزهرة تتفتح عندما يكتمل القمر، ليسطع على وجهي لكي يسطع الضوء من البلورتين، لأبقى أبدية طوال الدهر".

صمت مستر جيمس قليلاً وهو يتأمل الكلام مرة أخرى ليفهم ما بين تلك السطور، ثم نظر إلى همام قائلاً:

– هل فهمت شيئًا يا همام؟ ربما تلك المرأة هي الملكة التي كانت تتحدث عنها المرأة العجوز، ولكنها ربما لم تكن ملكة متوجة على منف أو طيبة، لأنني لا أتذكر أنني قرأت اسمها من قبل.

نظر إليه همام قائلاً:

– ما اسمها مستر جيمس؟

أجابه مستر جيمس قائلاً:

– خنتكاوس يا همام.

ردد همام اسمها عدة مرات حتى أن مستر جيمس ابتسم له قائلاً:

– إذن اسم حبيبتك خنتكاوس.

ابتسم همام لمستر جيمس قائلاً:

– ربما يا صديقي.

سارع مستر جيمس قائلاً:

– دعني أشاهد بعض الرسومات التي وجدهًا داخل هذا الكهف يا همام.

أخرج همام الرسومات التي رسمها خلال مكوثه في الكهف، نظر إليها مستر جيمس باهتمام كأنه شاهد شيئًا غريبًا في تلك الرسوم، وقال لهمام:

– انظر يا همام إلى تلك الحيوانات المجنحة، هذه أول مرة أشاهد تلك الحيوانات المجنحة، لم أشاهدها من قبل رغم كل خبرتي هذه في علم المصريات، كذلك يوجد الكثير من العامة في تلك الرسومات في حالة خضوع وعبادة لتلك المرأة، كأنها شخصية كانت لها أهمية كبرى في حياتها قبل وفاتها.

تعجب همام من كلام مستر جيمس حيث أجابه قائلاً:

– كيف كانت لها تلك المكانة العظيمة رغم أنها لم تكن ملكة متوجة؟! وكيف لها أن تصل إلى تلك المكانة بالرغم أنها لم تكن حتى من العائلة الملكية؟!.

أجابه مستر جيمس وهو ينظر إلى باقي الأوراق والرسومات مكملاً حديثه:

- ربما تلك السيدة كانت كبيرة الكهنة في ذلك الوقت، وربما كانت ساحرة عظيمة لذلك كان العامة يخشوها ويقدسونها، كأنها من أبناء الآلهة، والدليل على ذلك تلك الحيوانات المجنحة التي كانت تطير فوق رؤوس العامة في حضرتها، ليشعروا بقدرتها في السحر، وهذا في اعتقادي أقرب للثواب يا همام.

أجابه همام قائلاً:

- إذن من الطبيعي أننا كنا وجدنا بعض النصوص في معابد أخرى تذكرها، أو نجد لها شيئًا في مدينة طيبة أو منف، لأنها لو كانت كبيرة الكهنة فمكانها الطبيعي يكون في العاصمة، فلماذا كان معبدها أو مكان تقديسها في مكان بعيد عن منف مثل هذا الجبل الذي يقع في قلب الصحراء، لماذا تلك العزلة؟

هز مستر جيمس كتفيه قائلاً:

- في الواقع لا أعلم، وكل الأوراق لا تذكر شيئًا عن تلك الهجرة أو العزلة داخل هذا الجبل، ربما يا همام كان الموضوع يحتاج بحثًا أكثر، فربما نجد شيئًا عنها في مكان ما، ربما... رغم أنني أشك في ذلك.

أجابه همام قائلاً:

- إذن في نهاية الأمر لم نصل إلى شيء مستر جيمس!!

ابتسم مستر جيمس قائلاً:

- على الأقل عرفنا اسم السيدة التي سحرتك وأحببتها يا صديقي العزيز.

ضحك همام كثيرًا من كلمات مستر جيمس ولم يستطع أن يجيبه بشيء، بل شعر بالخجل منه.

الجد يحتضر

عاد همام إلى القرية ولم يشعر أنه توصل لشيء يستطيع أن يجعله يدرك ما يحدث حوله، فلماذا تلك الجميلة خنتكاوس –سواء ملكة أو كاهنة – قد سمحت له أن يقترب من معبدها، ولما اختارته هو دون شباب القرية، وهل كانت جميلة مثل ذلك التمثال، وما هي تلك اللعنة، مستر جيمس لم يجد إجابة في كل الأوراق عن اللعنة، سواء من بعيد أو قريب، ولماذا خنتكاوس هجرت المدينة العظيمة وكل تلك المعابد والقصور الملكية لكي تعيش في هذا الجبل، وهل قبرها موجود في الجبل أم أن هذا الجبل يحتوي على المعبد فقط؟ وإذا كانت مقبرتها لا توجد في الجبل، فأين توجد؟ أسئلة كثيرة تدور في عقل همام لا يجد لها إجابة مقنعة، ولكنه عندما عاد إلى المنزل وجد شيئًا آخر جعله ينشغل عن كل تلك الأسئلة الخاصة بالملكة خنتكاوس.

فعندما عاد إلى المنْزل لم يجد جده الشيخ يوسف يجلس كعادته في صحن المنْزل، نظر إلى والدته فشعر بالتغير وأحس بالحزن والقلق يكسوان وجهها، فتوجه بالسؤال لها قائلاً:

– ماذا بكِ يا أمي لما أنتِ حزينة؟

أجابته وهي تتهرب من عيونه قائلة:

– لا شيء يا ولدي، أخبرني كيف كانت رحلتك إلى الأقصر؟

لم يهتم همام بسؤال والدته، تلفت حوله ليفهم ماذا يحدث وردَّ قائلاً:

– أين جدي يا أمي؟

شعرت الأم أنها لابد أن تخبره، فأجابته بهدوء قائلة:

– إنه مريض بعض الشيء ويستريح في غرفته قليلاً يا ولدي، ولكن لا تقلق سوف يكون بأحسن حال بإذن الله.

أسرع همام إلى غرفة جده، دفع باب الغرفة بقوة فوجده في مخدعه وقد بدا شاحب الوجه منهك القوى مُتعب. في تلك اللحظة شعر همام أن جده ربما يفارقه ويتركه وحيدًا كما فعل أبيه معه من قبل، فبكى همام وبدأ يقبل يد جده ورأسه ولحيته،

حتى أن دموعه المتساقطة قد بللت لحية جده الشيخ يوسف، فنظر الجد له بابتسامة شعر همام أنه يفعلها بجهد كبير وقال لهمام:

- لا تخف يا ولدي فأنا بخير، ربما أصبحت كهل ولا أتحمل بعض أعراض الكهولة الآن يا همام.

أجابه همام وصوته متقطع من الدموع المنهمرة من عينيه قائلاً:

- لا تقل ذلك يا جدي فداك عمري كله، فليس من بعدك قيمة لحياتي وسعادتي.

كان الموقف حزين بشدة، فالكل يبكي ولا يستطيع أحد أن يتحمل فراق الجد، حتى إن الأم كانت تبكي بشدة بسبب بكاء همام لمرض الشيخ يوسف. لم يستطع همام أن يترك جده ويذهب إلى غرفته، بل كان يقضي وقته يجلس أمام جده يتأمله وينظر إليه، شاعرًا أنها ربما تكون اللحظات الأخيرة في حياة جده.كان يقضي الليل كله مستيقظًا ينظر إليه، حتى أنه شاهد رؤية غريبة بجوار جده وهو نائم، فقد شاهد والده يقف بجوار جده ينظر إليه، ثم نظر إلى همام بابتسامته المعهودة، ثم اختفى قبل أن يفكر همام بالتحرك نحوه.

شعر همام أن حدث مهم قد يحدث لجده، حتى أنه لم يستطع أن يخبر أمه بما شاهده في تلك الليلة حتى لا يزيد خوفها على الجد، كانت تبكي عندما تكون وحيدة ظنًا منها أن همام لن يصل إلى مسمعه بكائها ونحيبها، ولكن همام كان يسمع صوت بكائها ولا يستطيع أن يفعل لها شيئًا.

مرت بضع أيام وحالة الجد مستقرة، جاء الشيخ عثمان يحمل له بعض الأعشاب من الصحراء؛ أوصى أم همام أن تواظب في مداواة الشيخ يوسف بهذه الأعشاب وأن يشرب نقيعها لكي يُشفى، تمنى همام أن يكون في دواء الشيخ عثمان البركة والشفاء لجده المريض، فلم يكن يريد أن يفقد الأمل في شفاء الشيخ يوسف.

شعر همام بالحنين إلى الكهف والتمثال، حيث إنه الشيء الوحيد الذي يستطيع أن يلمسه من الملكة خنتكاوس، فكان يذهب إلى الجبل ليقضي بعض الوقت أمام التمثال يتأمل ملامح خنتكاوس، لكن في تلك المرة كان يشعر أن تلك الرسومات المنقوشة أو المرسومة تنظر إليه، تكاد تتحرك وتترك الحائط، ولكنه كلما سلط عينيه عليها وجدها ثابتة في مكانها، كان بالأمر شيء مريب

لا يستطيع تمييزه، ولكن في لحظة ما شعر أن عيني التمثال المكونة من الزمرد الأخضر تتحرك تجاه عينيه، حاول همام أن يركز بعينيه في عيني التمثال فوجد أن التمثال بالفعل ينظر إليه، أغمض عينيه لثواني ثم نظر إلى عيني التمثال مرة أخرى فوجدها تنظر إليه، فزع بشدة لدرجة أنه ترك قنديله وأشيائه وأطلق ساقيه للرياح هاربًا من الكهف، ولم يتوقف عن الجري إلا عندما وصل إلى منْزل جده بالقرية.

لم تتحسن حالة الجد كما توقع همام، فعلى الرغم من كل محاولات الشيخ عثمان لمداواته بالأعشاب، كانت حالة الجد تزداد سوءًا، فشعر همام أنه ربما لم يبقَ من عمر جده سوى أيام، وعليه أن يكون قويًا بما فيه الكفاية لكي يتحمل مسؤلية المنْزل، وما كان يفعله جده من أجل القرية، ولكن همام اكتشف أنه لا يعرف ما كان جده يفعله من أجل القرية، لأن شيوخ القرية كانوا يعتبرون كل ذلك أسرار بينهم فقط، ولا يجب أن يعلم بها أحد غيرهم.

حكاية القرية

مرَّ أسبوعان وحالة الجد لا تتحسن، وهمام يزداد قلقه على جده لأنه كان يشعر أن النهاية ربما تكون وشيكة، ولكن الجد لم ينهي مهمته مع همام، فالكثير من الأسرار والألغاز مازالت مجهولة بالنسبة لهمام، ولكن كل هذا ليس مهمًا في تلك اللحظة، المهم أن يخرج جده من غرفته ليمارس حياته مرة أخرى لكي يطمئن قلبه، لأنه لا يتصور إمكانية العيش بدون جده، لم يكن يفكر كثيرًا كيف ستسير حياته إذا توفي جده وتركه مسئولاً عن أشياء لا يدري عنها شيئًا.

وكأن جده بدأ يشعر بكل تلك التساؤلات التي تدور في ذهن همام، وربما لأنه شعر أن النهاية قد اقتربت كثيرًا، وحان الوقت ليخبر همام الكثير من الأشياء التي كان يتجنب الحديث عنها من أجل أن يحميه من كل ما هو غير منطقي مما يحدث لتلك القرية، أشار الجد إلى همام ليقترب منه، فاقترب وسأله قائلاً:

- ماذا تريد يا جدي؟

طلب منه الجد أن يقترب أكثر قائلاً:

- هناك أشياء كثيرة لا تعلمها، وربما لو توفيت في لحظة ما لن تجد من يخبرك بإجابة كل التساؤلات التي تدور في ذهنك، وتعيش في حالة بحث عن الحقيقة دائمًا.

تعجب همام لكلمات الجد:

- أي حقيقة تقصد يا جدي؟

أجاب الجد:

- حقيقة تلك القرية، أو ما تبقى منها يا بني.

أجابه همام:

- إذن سوف تخبرني عن اللعنة التي لا يريد أحد أن يتحدث عنها؟!

أغمض الجد عينيه قليلاً كأنه يتذكر أشياء لا يرغب أن يتذكرها، ربما لأنها مؤلمة له، أو لأنها من الممكن أن تفتح أبوابًا كثيرة لهمام لا يريد أن يفتحها له ليتركه يعيش في سلام، ولكنه في النهاية بدأ يروي القصة منذ البداية قائلاً:

– يا بني... قريتنا تلك تاريخها منذ قديم الأزل، فمئات السنين قد مرت عليها، كانت في الواقع وقتها أكبر بكثير منها الآن، فأجدادي كانوا يخبروننا أن أهل القرية في واقع الأمر قدموا من أماكن كثيرة، كانوا يأتون لزيارة هذا الجبل الذي كان يعتقد الكثيرون أنه جبل مقدس، بل إن كل شيء في ذلك الجبل مسحور، أو أنه يدخل في دائرة من السحر، فالكثير من العامة كانوا يأتون إلى هنا من أجل الصعود إلى الجبل، والكل يحمل أمنية أو طلب يريد تحقيقه، وبعض من قدموا إلى هنا لم يرجعوا إلى أوطانهم مرة أخرى، توطنوا بجوار الجبل وتجمعوا حتى كوّنوا قرية عظيمة في حضن هذا الجبل.

اندهش همام لكلام الجد وقاطعه قائلاً:

– لماذا يا جدي هذا الجبل مقدس أو مسحور؟

أجابه الجد قائلاً:

– يقال يا ولدي إن تقديس هذا الجبل يعود إلى الأجداد القدامى، حينما كان الفراعين يسكنون الوادي، فكانوا يأتون إلى هذا الجبل ليقضوا طقوسهم وتبركهم لتحقيق ما يتمنوه من ساكن هذا الجبل.

قاطعه همام بسؤال آخر قائلاً:

– ومن هم سكان هذا الجبل يا جدي؟

أجابه الجد قائلاً:

– يقال يا بني إن هناك ملكة أو ساحرة قد عاشت منذ آلاف السنين في هذا الجبل، وكان لها تابعين ومؤمنين بها، حتى يقال إنها عندما أتت إلى ذلك الجبل أتوا خلفها، وشيدوا لها معبدًا داخل الجبل لكي تجلس بداخله تمارس طقوسها وسحرها، والعامة كانوا يقدمون لها القرابين ويسجدون لها لكي تمنحهم البركة في حياتهم.

وأكمل الجد كلامه قائلاً:

– كما يقال إنها لم تكن ساحرة مثلما نسمع عنهم الآن، فالجدود أخبرونا أنهم كانوا يدركون قوتها وعظمتها، حتى أنهم أخبرونا أنهم في الليالي القمرية كانوا يشاهدون شيئًا مثل الطائر العظيم يخفق بجناحيه عاليًا نحو السماء، كان كبيرًا لدرجة أنه كان يخفي ضوء القمر عن القرية بأكملها، فكنا لا نرى شيئًا، وكانت الذئاب تخرج في تلك الليلة، حيث تهبط من الجبل بأعداد كثيرة كأنها تخبرنا بأن الملكة قد استيقظت من نومها!.

يكمل الجد كلامه قائلاً:

– كان الأجداد لا يستطيعون إشعال القناديل في تلك الليالي، فالنار لا تشتعل، كأن أجنحة ذلك الطائر الضخم ترسل الرياح لكي تطفئ كل القناديل المضاءة ,كانوا يخشون أن يخرجوا من بيوتهم في تلك الليالي خوفًا على أرواحهم، لأنهم يعلمون جيدًا أن تلك الليالي ملك لتلك الساحرة أو الملكة كما كان الجدود يطلقون عليها.

قاطع همام جده باندهاش قائلاً:

– لكن يا جدي هل كانت تؤذي أهل القرية؟ وهل كان هذا يحدث وهي مازالت تسكن الجبل أم بعد موتها؟

– في الواقع يا بني كل تلك الأحداث كانت تحدث بالتأكيد بعد موتها، لأنها ماتت منذ آلاف السنين، ولم يبقَ منها سوى هذا المعبد الذي يوجد في أعلى الجبل...

قاطعه همام قائلاً:

– وماذا عن إيذائها لأهل القرية؟

– لم تكن تفعل شيئًا لأهل القرية، لأنهم كانوا يبجلون هذا الجبل ويقدسون تلك الملكة وقدراتها السحرية.

رد همام قائلاً:

– ولماذا كان كل هؤلاء العامة يأتون لزيارتها في هذا الجبل؟

أجابه الجد قائلاً:

– كان العامة يأتون إليها طلبًا لتحقيق أمنية أو الحماية من قوى الشر وأشياء كثيرة أخرى.

همام:

– هل هذا كان يحدث فقط في حياتها يا جدي؟

– لا يا بني، بل كان يحدث إلى وقت قريب داخل معبدها.

– كيف يا جدي وقد أخبرتني أنها ماتت منذ آلاف السنين؟!

– يقال يا ولدي إنها كانت تأتي إلى معبدها كل يوم وتجلس بمفردها وأمامها طاولة فوقها ثلاثة تماثيل صغيرة، ويقال إن الذئاب كانت تحرس المعبد من الخارج، فكانت تسمح لشخص واحد فقط أن يدخل إلى مكان قدسيتها داخل هذا الكهف، حيث يضع هذا الشخص القربان أمامها ثم يسجد إليها ويتمنى الشيء في ذهنه دون أن يتحدث إلى الملكة، فتتحرك تلك التماثيل لتخبر الشخص إذا كانت رغبته سوف تقبلها الملكة أو

ترفضها، أو أنها سوف تشمله بالحماية والقوة من كل شر يحيط به، فالشخص يعرف الإجابة من خلال تلك التماثيل، ثم تأتي الذئاب لتأخذ القربان بعيدًا عن الملكة.

– كيف استمر الحال يا جدي بعد موتها؟

– من كانوا يؤمنون بها صنعوا تمثالاً لها ووضعوه داخل المعبد داخل هذا الكهف، وأمامه تلك التماثيل، وكانوا يفعلون كل الطقوس التي كانت تحدث أثناء وجودها على قيد الحياة، فالتماثيل كانت تتحرك لتعطي الإشارة لمن يقدم القرابين.

– إذن يا جدي يبدو من كلامك أن تلك الطقوس كانت تحدث لآلاف السنين، وأن الحياة كانت مزدهرة في القرية نتيجة توافد كل هؤلاء الناس من أجل الملكة وهذا الجبل.

– نعم يا همام، فكل يوم كنا نجد الكثير من الزائرين يأتوا إلى القرية حتى وقت قريب، منذ ما يقرب من مائة عام تغيرت أشياء كثيرة في القرية وغيرت الكثير من القرية.

اهتم همام بتلك العبارة، حيث إنه كان متشوقًا لسماع ما تغير في القرية منذ مائة عام كما أخبره جده، فقال له:

- وماذا حدث يا جدي منذ مائة عام؟

ولكن الجد بدأ يشعر بالإرهاق فطلب من همام أن يتركه يستريح، لم يرغب همام أن يسبّب له إرهاقًا أكثر، بالرغم من الفضول والرغبة الشديدة لمعرفة باقي قصة الملكة، والتي لا يبدو أن أحد كان يعلم عنها الكثير، فيبدو أن تلك الملكة كان حولها هالة من التقديس والسحر تمنع أي شخص من اختراقها.

كان همام يفكر كثيرًا ويحاول أن يتذكر كل التفاصيل التي ذكرها جده له، محاولاً وضع تصور لما حدث لهذه القرية، ولكن مازالت الكثير من التفاصيل غامضة لم يذكرها أحد، ثم أين هي اللعنة في كل ذلك؟ يبدو أن هذه الملكة لم تكن شريرة،.بل كانت تساعد العامة من الشعب.

لم يستطع همام أن يصل إلى شيء، ولكنه كان في انتظار جده أن يحكي له باقي القصة، لكي يفهم كل شيء حول تلك الملكة المسحورة.

سر اللعنة

لم يستطع همام أن يقاوم رغبته في حث جده على تكملة ما أخبره به بالأمس عن قريتهم، وما كان يحدث في ذلك الكهف في أعلى الجبل، فهمام لم ينم تلك الليلة، حيث استيقظ مبكرًا ذاهبًا إلى غرفة جده لكي يجلس بجواره في مخدعه يتأمل وجهه، ويتلمس بأصابعه شعر جده الأبيض ولحيته، فربما لا يستطيع لمسها مرة أخرى.

كان همام يتأمل وجه جده، ويشعر أن الدموع تكاد تتغلب على رغبته في عدم البكاء، حتى لا يستيقظ جده فيشعر بتلك الدموع التي تلمع في عين همام. استيقظ الجد ليجد همام بجواره ينظر إليه ويتأمل ملامحه، فابتسم له قائلاً:

– لماذا استيقظت مبكرًا يا بني؟

- في الواقع لم أستطع النوم يا جدي، كنت أفكر في حديثك معي ليلة أمس، وحقيقة فالفضول يقتلني لكي تحكي لي ماذا حدث بعد ذلك.

- كانت القرية تدرك أهمية هذا الكهف بالنسبة لها، فكان أهالي القرية يتجنبون الحديث أو فعل شيء يجعل تلك الروح التي تسكن الجبل تغضب أو تصيبهم بأذى، ولكن في يومٍ ما جاء أحد الرجال إلى القرية، سمع الكثير من القصص حول ذلك الكهف من شباب القرية في ذلك الوقت منذ أكثر من ستين عام، وكان والدي أحد هؤلاء الشباب الذين تعرف عليهم ذلك الرجل، في البداية كان الرجل كريمًا معهم، فدعاهم إلى زيارته في مدينة الأقصر عند مجيئهم إلى زيارتها في المرة القادمة. وكان والدي شغوفًا بمعرفة ذلك الرجل، وعندما ذهب إلى الأقصر توجه مع رفاقه إليه.

كان ترحاب الرجل لهم مدهشًا، فأقام لهم الولائم والسهرات التي لم يكن أحدهم قد شاهدها قبل ذلك، وقبل رحيلهم أخبرهم أنه تاجر ولكن يتعامل في الآثار، حيث يجمع التماثيل والأشياء التي توجد في القبور القديمة للجدود ويبيعها إلى من يرغب في

ذلك، وأقنعهم أنهم يستطيعون الحصول على أموال كثيرة مقابل ما يجدوه، بل منحهم أموالاً قبل عودتهم إلى القرية، وعندما تعجبوا من ذلك أخبرهم أنه جزء من المال الذي سوف يحصلون عليه عندما يجدون شيئًا ما في قريتهم.

يكمل الجد حديثه قائلاً:

– تلك المجموعة من الشباب بما فيهم والدي؛ شعروا أنهم لابد أن يبحثوا على أشياء مثل التي أخبرهم بها ذلك الرجل، لكي يربحوا الكثير من الأموال، ويتمتعوا بالحياة في الأقصر، دون أن يخبروا أحدًا، بالفعل عندما عادوا إلى القرية كانوا يذهبون في رحلات طويلة إلى الصحراء أو الجبال التي كانت قريبة من القرية؛ للبحث عن تلك التماثيل لبيعها للرجل، وبعد فترة من البحث والتنقيب في تلك الأماكن اكتشفوا مقبرة ما، ولكنها لم تكن لفرعون أو أي أحد من كبار رجال الدولة في العهد القديم، فوجدوا بعض التماثيل والحلي بداخلها، وكانت سعادتهم غامرة عندما ذهبوا إلى هذا الرجل ليعرضوا عليه التمثال، قابلهم الرجل بالترحاب، وشعر في تلك اللحظة أن هؤلاء الشباب أصبحوا الآن تحت إمرته، فمنحهم أموالاً كثيرة مقابل هذا التمثال.

يقاطعه همام بسؤال قائلاً:

– لكن يا جدي ألم يشعر بهم أحد في القرية، أو تظهر عليهم علامات الثراء مثلاً؟

– كانوا في تلك الفترة مازالوا شبابًا صغارًا، ووجدوا عند هذا الرجل أشياء لم يعرفوها من قبل، فقد بدأ هذا الرجل يصنع لهم جنة وهمية في كل الأماكن التي كان يصطحبهم إليها، فعرفوا طريق الجلوس إلى النساء ومعاشرتهن، وشعروا أنهم يجب أن يعيشوا في تلك الجنة إلى الأبد.

كانت تلك المجموعة من الشباب ينفقون أموالهم التي ربحوها في تلك الأفعال في الأقصر، وأماكن أخرى أخبرهم بها ذلك التاجر، وعندما تنتهي أموالهم كانوا يذهبون إلى تلك المقبرة لكي يجدوا شيئًا يصلح للبيع إلى صديقهم التاجر، مرت بضع سنوات وتلك المجموعة تنهب المقبرة لتبيع ما تجده لذلك التاجر، حتى أصبحت حياتهم كلها فُجرًا ومجونًا، وأصبح شاغلهم الوحيد إيجاد التماثيل أو المقتنيات القديمة؛ لكي يجنوا الأرباح وينفقوها على تلك الحياة، التي أصبح السُكر والخمر والنساء عنوانًا لها، وأصبحت تلك هي حياتهم، ونسوا أن قريتهم وأهلها أحوج إلى ذلك المال الذي كان ينفق على تلك النسوة الساقطات في البر الشرقي.

– ولكن يا جدي كيف لم يشعر أهل القرية بهذا التغيير في سلوكهم؟ وخاصة أن أشياء كثيرة تدل على هذا التغير في شخصيتهم وأحوالهم؟

– نعم يا همام، بالفعل أتذكر والدتي عندما كانت تخبره أنه ليس زوجها الذي تزوجته، بل شخص آخر مختلف، لا يهتم بحالنا أو بحال عمله في القرية، بل كان يريد أن يقضي معظم وقته في البر الشرقي، كنت أجد والدتي تبكي كثيرًا لتلك المعاملة الجافة، وتدعو الله أن يهديه لها ولأبنائه، وكنت أنا أكبر أولاده، وكان عمري في ذلك الوقت قد تخطى العشر سنوات.

– أكمل يا جدي ماذا حدث بعد ذلك؟

– أنفقوا كل أموالهم، وعندما عادوا إلى المقبرة لم يجدوا شيئًا يصلح أن يشتريه ذلك التاجر، فظنوا أنه صديقهم وربما يمنحهم بعض المال لكي يقضوا بعض الوقت في تلك الجنة الوهمية بين السُكر والنساء، ولكن كانت المفاجأة بالنسبة لهم أن ذلك التاجر رفض منحهم أي أموال بل قال لهم: "أنا لا أتصدق بأموالي، أنا تاجر أشتري لكي أبيع مرة أخرى، فاذا كان لديكم شيء

يستحق أن أشتريه فسوف أمنحكم الأموال، أما غير ذلك فلا يوجد لدي مال لكم".

يكمل الجد حديثه قائلاً:

– لم يصدق أبي ما سمعه من ذلك الرجل، وشعر أنه يطردهم جميعًا من الجنة التي عاشوا فيها بضعة سنوات، كأنها حلم رائع ثم استيقظوا من النوم لينتهي الحلم.

قاطع همام حديث جده ليسأله قائلاً:

– وماذا فعلوا بعد ذلك يا جدي؟

– عادوا إلى القرية وكلهم خيبة أمل مما حدث، وشعروا أنهم لا يستطيعون العيش بدون تلك الحياة، فذهبوا في كل مكان ينقبون ويبحثون بكل اتجاه لعلهم يجدوا شيئًا يمنحهم تذكرة العودة إلى تلك الحياة مرة أخرى.

– إذن في نهاية الأمر فشلوا في أن يجدوا شيئًا يمنحوه لذلك التاجر يا جدي، فماذا فعلوا بعد ذلك؟

– مرَّ شهر وهم في حالة جنون وغضب عارم، كان والدي يضرب أمي لأتفه سبب، حتى إننا كنا نبكي من كثرة الرعب

والخوف بسبب بكاء والدي، وأتذكر أننا كنا نهرب عندما نجده قد عاد إلى المنْزل مرة أخرى.

يكمل الجد حديثه قائلاً:

– استمر الحال هكذا، حتى إننا مر علينا بضعة شهور كنا نشعر أنها بضعة سنين من الخوف والرعب بسبب حالة أبي المزرية، وكل أهل القرية يتعجبوا من حاله وحال تلك المجموعة التي أصبح أسوأ من ذي قبل، قرر والدي مع رفاقه العودة إلى البر الشرقي ليجدوا أي وسيلة لإقناع التاجر أن يمنحهم بعض الأموال لقضاء بعض الوقت في تلك الجنة الوهمية، حتى لو تتطلب الأمر أن يقبلوا يديه، ولكن التاجر كانت مقابلته مختلفة في تلك المرة، حيث استضافهم ودعاهم لقضاء ليلة مثل التي كانوا يقضونها من قبل، وكانت فرحتهم وسعادتهم قد جعلتهم لا يفكرون لِمَ يفعل هذا الرجل معهم ذلك.

قاطع همام حديث جده وهو يتعجب من ذلك قائلاً:

– فعلاً يا جدي، لِمَ تغير حاله وفعل هذا معهم بالرغم من أنهم لا يملكون شيئًا الآن؟!

أجابه الجد قائلاً:

- أثناء تلك الليلة أخبرهم التاجر أنهم يستطيعون الحصول على أموال ليس لها حصر، وأنهم مهما عاشوا لن يستطيعوا إنفاق كل تلك الأموال إذا حصلوا عليها، فكان رد فعل والدي استفسار عن كيفية الحصول على كل تلك الأموال، فأجابهم التاجر:

- من خلال الكهف الموجود في ذلك الجبل.

والد الجد:

- وماذا يوجد داخل الكهف يصلح لك أيها التاجر؟

- أريد تلك التماثيل الثلاثة الموجودة أمام تمثال الساحرة.

- مستحيل هذا انتحار، من يستطيع أن يدخل الكهف ويسرق تلك التماثيل ويخرج بهم دون أن يكون عقاب الملكة شديد؟!

- بالطبع أنتم.

- لابد أن الخمر قد لعب برأسك أيها التاجر، فنحن لا نملك القدرة على ذلك، وإن فعلنا ذلك فغضبها سوف يكون شديد.

- لا تخف، فأنا أعرف ماذا سوف أفعل.

- وماذا ستفعل أيها التاجر لكي تتغلب على تلك الروح التي تسكن داخل هذا الكهف؟

أجابه التاجر قائلاً:

- عندما تتفقوا فيما بينكم أخبروني، وحينها سأخبركم ماذا سنفعل.

يكمل الجد حديثه قائلاً:

- كان والدي ورفاقه في حيرة لأنهم يرغبون في كل تلك الأموال التي وعدهم بها التاجر عندما يحصل على تلك التماثيل، من ناحية أخرى كان خوفهم من رد فعل ما سيفعلونه عندما يسرقون تلك التماثيل الثلاثة، لأنهم يعلمون جيدًا أنها ليست تماثيل مثل باقي التماثيل، فمن يملكهم يستطيع أن يفعل أشياء كثيرة بها.

قاطع همام جده وهو ينتظر إجابته بلهفة شديدة قائلاً:

- وماذا حدث بعد ذلك يا جدي؟

أجابه الجد قائلاً:

- قضوا عدة أيام من التشاور والحيرة في هل يصعدون الجبل أم يرفضون هذا العرض السخي، ولكنهم في نهاية الأمر وجدوا أنها فرصة عظيمة سيجنوا منها المال الكثير، وأنهم من الممكن أن يهجروا القرية بعد ذلك ويتمتعوا بكل تلك الأموال في البر الشرقي، وبالفعل أخبروا التاجر أنهم سوف يفعلون ذلك، ولكن

كيف؟ كان هذا هو السؤال المهم، ولكن التاجر أخبرهم أنه عندما يأتي المساء سوف يجيبهم عن هذا السؤال، وعن خطته لسرقة تلك التماثيل الثلاثة.

في المساء أتى التاجر ومعه شخص آخر، فتعجبوا من ذلك، مَنْ يكون هذا الشخص، ولكن التاجر لم يتركهم في تلك الحيرة، حيث أخبرهم أنه ساحر عظيم الشأن سيساعدهم في سرقة تلك التماثيل.

ضحكوا حتى أن ذلك الرجل قد غضب من ضحكهم الهيستيري فقرر أن يدعهم يشاهدون قدراته ومقدرته على فعل أشياء عظيمة لا يصدقها عقل، أشعل النار في ملابسهم بحركة من أصابعه، نهضوا في حالة فزع وصراخ في محاولة لإطفاء تلك النار، ولكن الساحر أشار بأصابعه بطريقة معينة فانطفأت النيران وكأن شيئًا لم يحدث لملابسهم، ثم بدأ يحرك يديه في الهواء فوجدوا أنفسهم يطيرون كأنه يحملهم بيديه، ثم تركهم ليسقطوا بشدة على الأرض، وفي تلك اللحظة شعروا أنه بالفعل ساحر عظيم. ولكن كل هذا لا يكفي ليستطيعوا سرقة التماثيل من ذلك الكهف.

قاطع همام جده قائلاً:

– بالفعل يا جدي، كيف يستطيع هذا الساحر أن يسيطر على ما يحدث داخل الكهف لكي يسرقوا تلك التماثيل؟

أجابه الجد قائلاً:

– لقد أخبرهم الساحر أنه يعلم الكثير عن تلك الروح التي تسكن الكهف، وأنه سخر لهذا ملك عظيم من ملوك الجن، بينه وبين الملكة عداء منذ آلاف السنين، ولذلك سيساعدهم في حجب قدرتها عندما يتم سرقة التماثيل، وأن الوقت المناسب لذلك عندما يكون القمر مكتملاً، لأنها تكون في أضعف حالاتها في الليالي القمرية، فهي تتشكل بشكل طائر عظيم وتهجر الكهف لتصعد إلى السماء بين النجوم، وتترك كهفها خالي بدون قوة تحميه، وتلك هي اللحظة المناسبة، حيث أن عظيم الجن سوف يحجب عنها رؤية ماذا يحدث داخل الكهف، وسوف يخبرهم بالوقت المناسب عندما يصعدوا إلى الكهف لكي يتم تحريك تلك التماثيل في نفس التوقيت، حتى يستطيعوا الحصول عليها ويوفقوا في مهمتهم، ولكن الساحر حذرهم أن أي خطأ ولو بسيط سوف يؤدي إلى هلاكهم جميعًا قبل أن يخطوا خطوة خارج الكهف.

أكمل الجد حديثه قائلاً:

- بالفعل اتفق الكل على إتمام تلك المهمة لكي يحصل كل واحد منهم على ما يريده، وقرروا أن يتم ذلك في الشهر القمري الجديد، وبالفعل عاد والدي ورفاقه إلى القرية.

شعر الجد الشيخ يوسف بالإرهاق والتعب فقال لهمام:

- كفى اليوم يا بني لأنني أشعر بالتعب، ولنكمل الحديث في الغد إذا أمد الله في عمري إن شاء الله تعالى.

شعر همام أن ما تبقى من القصة يبدو مثيرًا، وربما يفسر الكثير من الأشياء التي كانت غامضة في الماضي، أو على الأقل سوف يجد بعض الإجابات حول ما يدور داخل عقله. كان همام ينتظر داخل المنْزل طوال اليوم، فربما يبعث الجد في طلبه لتكملة القصة التي جعلته شارد الذهن، يفكر مليًا فيما سمعه من جده في اليومين السابقين. في المساء سمع همام جده الشيخ يوسف يناديه من غرفته، فأسرع همام إليه قائلاً:

– نعم يا جدي؟

– اجلس بجواري يا بني لكي أكمل لك ماذا حدث بعد ذلك.

صمت الجد قليلاً كأنه يتذكر ذكريات صعبة ومؤلمة، ثم بدأ في الحديث قائلاً:

– عاد والدي مع رفاقه إلى القرية وهم في حيرة في أمرهم، كانوا يدركون خطورة ما سيفعلوه، فالروح التي تسكن الكهف لن

تتركهم يسرقون تلك التماثيل بسهولة دون عقاب، ثم هل يستطيع هذا الساحر أن يصمد أمام غضبها، كان الشك يملأ قلوبهم، ولكنها في نفس الوقت ممتلئة بالطمع، فالأموال التي سوف يحصلون عليها ليست قليلة، بل ستجعلهم أغنياء طوال حياتهم، إذن تلك الأموال تستحق كل هذا، حتى لو ضحوا بمن يحبون من أهل القرية، المغامرة تستحق ذلك.

أكمل الجد حديثه قائلاً:

- في الليلة المتفق عليها والتي اكتمل فيها القمر؛ توجه والدي ورفاقه نحو الجبل، كانوا في انتظار التاجر والساحر، وبالفعل اجتمع الكل أسفل الجبل ينتظروا خروج الروح على هيئة الطائر الضخم، ليستطيعوا أن يصعدوا إلى أعلى الجبل حيث الكهف والتماثيل، بعد فترة قليلة من الانتظار حدث ما يحدث في كل ليلة قمرية، خرجت الروح ترفرف بجناحيها، حتى أن ضوء القمر الذي كان يضيء القرية قد اختفى، فصعد والدي ورفاقه ومعهم التاجر والساحر حتى وصلوا إلى داخل الكهف، ثم بدأ الساحر يتمتم بكلمات ويطلق أنواع من البخور ويشير بيديه بحركات

غريبة، ثم أخبرهم أن يمسك كل واحد منهم بتمثال؛ وعندما يعطيهم الإشارة؛ سيطلب منهم تحريك التماثيل الثلاثة معًا.

يكمل الجد قائلاً:

- مرت دقائق، كأن الساحر كان ينتظر أن يكتمل البخور لكي يصنع شيئًا ما كحاجز، يفصل داخل الكهف عما يحدث بالخارج، أو يحاول ألا تشعر الملكة بما يحدث داخل الكهف، وبالفعل حانت اللحظة المشئومة وأشار إليهم بتحريك التماثيل الثلاثة في نفس اللحظة، ثم أشار الساحر أن يسرعوا بالخروج من الكهف.

لاحظ همام أن جده قد تغير لون وجهه، وكان يتصبب عرقًا، طلب الجد أن يحضر له بعض الماء، فأسرع همام بالماء لكي يسقيه، كان همام فزعًا فقال للجد:

- ماذا بك يا جدي، هل أنت بخير؟

سكت الجد قليلاً كأنه يلتقط أنفاسه، ثم نظر إلى همام قائلاً:

– لا شيء يا بني، فقط تذكرت ما حدث في تلك الليلة المشئومة، فما حدث كان شيئًا جللاً وليس بالسهولة أن أمحوه من ذاكرتي، بالرغم أنني كنت صغيرًا في ذلك الوقت.

يكمل الجد الحديث قائلاً:

– عندما تم أخذ التماثيل الثلاثة اهتز الجبل اهتزازًا عنيفًا، حتى إنهم كانوا لا يستطيعون الخروج من الكهف، كانت التماثيل في أيديهم تصرخ صراخًا عاليًا تهتز له الأرض والسماء، وكان صوت الصراخ يتبعه صوت رعد ضخم يخطف قلوبهم، أسرعوا بالخروج من الكهف، كانوا يحاولون الهبوط من الجبل بأسرع ما يمكن، حتى يتفادوا البرق الذي كان يسلط ضرباته القوية بالقرب منهم، خرجت القرية بأكملها من هول ما يحدث في الخارج، فالأرض كانت تهتز بعنف شديد، والصواعق تضرب الجبل فتنهار الصخور من أعلى لتتساقط بقوة حتى تقع بالقرب من القرية، لدرجة أن أهل القرية شعروا أن الجبل سوف ينهار عليهم.

أكمل الجد حديثه والفزع يسيطر عليه، والكلمات تخرج من شفتيه مرتعشة من هول ما يتذكره، نظر إلى همام وأكمل:

– أثناء هبوط والدي ورفاقه من أعلى؛ وعندما اقتربوا من القرية، تبعتهم ذئاب سوداء ضخمة، كانت عيونهم شديدة الحُمرة، حتى أننا كنا نشاهد الضوء يخرج من عيونهم بقوة، لقد شاهدهم وهم قادمون خلف والدي، الذي كان يهرول نحو أهل القرية يصرخ ويطلب النجدة منهم، ولكننا شاهدنا الذئاب تنقض فوقه تنهش لحمه وتمزقه أجزاء، صمت والدي إلى الأبد ولم يظهر صوته من بين عواء تلك الذئاب، التي أعلنت غضبها على الجميع، وهذا ما حدث مع كل رفاقه، أما الساحر فوجدنا الأرض تهتز تحته بشدة، ثم شاهدنا الأرض تتمزق ليخرج منه ثعبان ضخم لدرجة أن ذيله عندما يتحرك كان يدمر الكثير من المنازل التي كانت في طريقه نحو هذا الساحر، الذي حاول أن يستخدم سحره لكي يصد الثعبان. كان الثعبان بعيونه الحمراء ضخم الرأس، حتى أنه أمسك الساحر بين فكيه ثم وقف كأنه جبل ضخم يعلن انتصاره، كان الساحر يصرخ من شدة الألم، ابتلعه الثعبان ثم هبط تحت الأرض مرة أخرى.

كنا نحن أهل القرية نشعر بالرعب الشديد، كنا نجري بين طرقات القرية لا نعرف إلى أين نذهب، ثم سمعنا الصرخات كأن الملكة

تصرخ بشدة وبغضب، كان الصراخ من القوة لدرجة أن أحد لم يستطع احتماله، فكان رجال القرية يصرخون من شدة الألم، كنا نشاهدهم وهم يجرون في الطرقات مثل السكارى، يصرخون ويتخبطون في جدران المنازل حتى الموت، امتلأت الشوارع بجثث الرجال الموتى من كثرة الألم داخل عقولهم، كانت السماء تمطر بشدة، حتى المنازل لم تستطع أن تحمينا من كل هذا، وجدت أمي تصرخ وتجذبني من ملابسي أنا وإخوتي، كانت تحاول الهروب من القرية نحو الصحراء، وكنا نهرول ونجري ونسقط، ثم نعاود الهرب مرة أخرى، حتى اقتربنا من الصحراء فوجدنا الذئاب السوداء تحاصر القرية، وكل رجل يحاول الخروج من القرية كانت تنقض عليه تمزقه ولا يبقى منه شيء سوى الدماء فقط، لكن العجيب أن الذئاب كانت لا تقترب من العجائز أو النساء أو حتى الأطفال، كانت تسمح لنا بالعبور إلى خارج القرية دون أن تتعرض لنا بأذى.

كان الرعب يسيطر على ملامح همام، كان يتصبب عرقًا من الخوف والرعب، كأنه يريد أن يقول لجده كفى يا جدي، ولكن الفضول سيطر عليه لكي يعرف ما حدث بعد ذلك، فقال:

- وماذا حدث بعد ذلك يا جدي؟

- تجمع أهل القرية خارج القرية في الصحراء، لم أجد سوى النساء والأطفال والعجائز، أما باقي رجال القرية فلم نعلم مصيرهم، كان الخوف يسيطر علينا ولا نستطيع العودة إلى داخل القرية، حتى أننا قضينا ليلتنا تلك في الصحراء إلى أن أشرقت الشمس علينا ونحن في الصحراء.

- وماذا بعد يا جدي؟

- عدنا في الصباح الباكر إلى القرية حيث وجدنا الرجال موتى في الطرقات والمنازل، والكلاب تنهش أجسادهم وتمزق لحومهم، والصقور تحوم في السماء في تلك الدوائر تريد أن تنقض على الجثث المنتشرة في كل مكان بالقرية، أما والدي ورفاقه فلم يبقَ منهم سوى أجزاء بسيطة، وبجوارهم تلك التماثيل التي سُرقت من داخل الكهف، كانت النساء كلها تنوح وتبكي من الفراق والحزن على الرجال الذين ماتوا، كان صراخ النساء يخترق أذني من كل مكان في القرية، وكنا نحن الأطفال نرتعش من الرعب والخوف، كنا نجلس بجوار أمهاتنا نلتصق بهن خوفًا من أن تأتي

تلك الذئاب لتمزقنا مثل ما حدث مع آبائنا في تلك الليلة المشئومة.

- وماذا حدث بعد ذلك يا جدي؟

- تجمع العجائز من الرجال، جمعوا ما تبقى من أهل القرية من النساء والأطفال، وقرروا أننا لابد أن نتعاون كلنا لكي ندفن الرجال الذين ماتوا، أو ما تبقى منهم مثل أبي، وبالفعل خرجنا نحو الصحراء، كانت النساء تحاول أن تشق الرمال لكي تدفن كل الرجال بالقرب من بعضهم خارج القرية، ثم عدنا قبل الليل خوفًا من أن يحدث شيء.

كانت النساء والأطفال في حالة رعب شديد حتى أننا كنا لا نخرج من المنازل، بل كنا نتجمع في الليالي سويًا لكي تحمي النساء الأطفال من أي شيء قد يحدث بالخارج، كل شيء كان مرعبًا، ثم لم يعد أحد يأتي إلى القرية كأنها اختفت من الوجود، وكنا لا نستطيع أن نترك القرية، كأن قريتنا لم تعد موجودة بعد تلك الليلة الملعونة.

موت الجد

عندما استمع همام لكل القصة، وفهم ما حدث للقرية منذ أكثر من خمسين عام، وكيف حدثت اللعنة، وما حدث لوالد جده؛ أخذ يفكر كثيرًا في العديد من تلك الأحداث التي مرت عبر حكاية الجد، وأخذ يفكر مليًا فيما يحدث معه، ولكن كلما ظن أنه قد فسر الجزء الأكبر من الرواية؛ تظهر له الكثير من الألغاز والأسرار، تجعله يريد أن يفهم ماذا حدث بعد تلك الليلة المشئومة، ليس له خيار آخر سوى أن يتجه إلى غرفة جده لكي يفهم المزيد، ويجد إجابات لكل التساؤلات التي كانت تدور داخل عقله، توجه همام إلى جده لكي يسأله قائلاً:

– جدي، هناك بعض الأشياء أريد إجابات عنها...

ابتسم الجد رغم أنه كان يبدو عيه شدة الإرهاق والتعب، وأنه لا يستطيع أن يقاوم المرض الذي اعتراه، قال لهمام:

– ماذا تريد أن تفهمه يا بني؟

- كيف مات أبي؟

- عندما حدث ما حدث في تلك الليلة؛ وجدنا التماثيل الثلاثة في طرقات القرية بجوار دماء والدي ورفاقه، فأخذنا التماثيل إلى عجائز القرية ليتناقشوا فيما سوف يفعلون بها، كان قرارهم أن يحتفظوا بها في بيت أبناء كل من قام بذلك، فكان نصيبي ذلك التمثال الذي كان بجوار ما تبقى من والدي، كنا نشعر بالخوف من تلك التماثيل لأنها كانت سبب طمع الأباء، وما حدث من كوارث في تلك الليلة، وكان العجائز يظنون أنها سوف تكون لعنة فقط لمن حاول أن يسرق تلك التماثيل، لكن منذ عشرة أعوام قررت أن أجمع التماثيل الثلاثة لتكون بحوزتي، خوفًا من أن يطمع أحدهم في بيع تمثال من التمثالين الأخرين، وربما يكون هذا في غير صالح القرية، وتصبح اللعنة أكثر شراسة من ذي قبل، أو على الأقل يزداد حال القرية سوءًا، فجمعت الثلاثة تماثيل معًا في منزلي، فكرت أنه ربما عندما نضع الثلاثة تماثيل معًا يحدث شيء ما وتنتهي تلك اللعنة المشئومة.

- وهل حدث شيء عندما وضعتم التماثيل الثلاثة بجوار بعضهم البعض؟

– لا، لم يحدث شيء، ولكن أبوك عندما شاهد ذلك ظن أنه ربما حل تلك اللعنة ليست في التماثيل في حد ذاتها، ربما يكون الحل هناك في أعلى الجبل.

– وماذا فعل أبي يا جدي عندما ظن أن الحل هناك في أعلى الجبل؟

– كان والدك طيب القلب متفائلاً ومبتسمًا في كل الأحوال حتى السيئة منها، كان يظن أن الأمر بسيط، وأنه عندما يصعد الجبل سوف يستطيع أن يجد الحل هناك، ويعيد الأمور إلى نصابها، وقد اعترضت عليه كثيرًا في فكرة الذهاب والصعود إلى الجبل.

– وهل صعد إلى الجبل؟

– نعم صعد إلى الجبل ولم يهبط منه مرة أخرى، حاولت إقناع بعض شباب القرية أن يصعدوا إلى الجبل لكي يبحثوا عنه، أو على الأقل يجدوا جثته إذا كان قد مات، ولكن الكل رفض ذلك، ولم يكن بيدي شيء لأفعله من أجله، حتى إنني مازلت أشعر بالندم على سماحي له بالذهاب إلى الجبل.

– وماذا عن التماثيل الثلاثة؟

أشار الجد بإصبعه نحو صندوق قديم مغلق وقال لهمام:

– افتح يا بني هذا الصندوق ستجد التماثيل الثلاثة، احتفظ بهم، فربما أموت في أي لحظة وأنت لا تعلم مكانهم، احتفظ بهم يا بني.

أسرع همام نحو الصندوق وفتحه، كان يبدو عليه أنه لم يقترب منه أحد منذ زمن طويل، عندما فتحه وجد التماثيل الثلاثة، كانت بنفس الحجم والطول، ولكن ملامح كل تمثال تختلف عن التمثال الآخر.

– ماذا أفعل بهم يا جدي؟

– لا شيء يا بني، فقط احتفظ بهم لأننا كنا سبب تلك اللعنة، وربما يومًا ما نستطيع أن نعيدهم مرة أخرى إلى الملكة حتى ترضى عن أهل القرية، التي كنا السبب في اللعنة التي حلت بها.

بالفعل أخذ همام التماثيل الثلاثة ووضعها أمام عينيه وهو يتأملهم، كان ينظر إليهم متسائلاً، إنهم مجرد تماثيل صغيرة فهل يستحقون كل ما حدث لتلك القرية، وما السر الذي يجعلهم بتلك الأهمية للملكة التي تسكن الكهف، وهل كان بداخلهم قوة أو طاقة كان يريد التاجر والساحر أن يستغلها من أجل جني الكثير من المال، وكيف كان يستطيع ذلك؟

كان همام في كل مرة يشعر أن مجال التساؤلات يزداد، وتزداد حيرته معه، فالآن يعلم القصة بكاملها، ومعه تماثيل الملكة خنتكاوس، ولكن لا يعرف ماذا يفعل مع تلك التماثيل، والسؤال الأهم الذي يدور في ذهنه ولا يجد إجابة له، لماذا سمحت له خنتكاوس بالصعود إلى الجبل ومعرفة كل شيء داخل الكهف ولم تسمح لوالده بذلك. لم يستطع همام أن يدرك ما يبحث عنه، ولكنه ظن أن هناك تفاصيل مازالت غامضة له.

أثناء ذلك بدأ المرض يزداد على الجد، فأصبح لا يستطيع النهوض من مخدعه، ثم ازداد المرض عليه حتى أصبح لا يستطيع التحدث، وامتنع عن الطعام، فلم يستطع همام أن يفعل له شيئًا، حتى الشيخ عثمان عندما جاء لزيارته لم يستطع أن يفعل شيئًا، بل كانت ملامحة الحزينة تُخبر همام أن الجد أصبح في حالة يرثى لها، وأنه أوشك على أن يقابل ربه الكريم في غضون أيام.

بالفعل، بعد عدة أيام من عجز الجد، وعدم قدرة همام أن يفعل شيئًا، توفي الجد تاركًا همام وحيدًا مع والدته، يحمل إرث ضخم من المشاكل واللعنات التي أصابت تلك القرية بسبب ما فعله الجد الأكبر.

القرية كلها خرجت خلف الشيخ يوسف تبكي لفقدان هذا الرجل الذي شعر الجميع أنه الجد والأب لهم، الكل كان يحمل جسد الشيخ يوسف ويودعونه والدموع تملأ عيونهم، حتى الرجال كانوا يبكون على رحيله، لقد رحل حكيم القرية ومن كان يمنحهم الأمل في الغد.

لم يستطع همام فراق جده، فكان يجلس بجوار قبره كل يوم يتحدث إليه كأنه مازال على قيد الحياة، كان يشعر أنه مازال يستمع إليه ويبتسم من العالم الآخر ليخبره أنه مازال بجواره، وأنه على محبته له، تلك المحبة التي كان يشعر معها بالأمان والطمأنينة، خاصة عندما كان يحتضنه منذ طفولته، فالجد لم يكن جده فقط، بل كان الأب الذي منحه كل شيء رائع في حياته.

لم يتصور همام يومًا أنه سوف يرحل ويتركه وحيدًا في تلك الدنيا، وبين جدران تلك القرية المشئومة، ولكن الشيخ يوسف رحل كما رحل الكثير من قبله، فلكل شيء نهاية، ولكن نهاية من نحبهم تكون قاسية في لحظاتها الأولى، وتفقدنا الكثير من ملامح السعادة والأمان فيما بقي من حياتنا.

شعر همام أن الحياة أصبحت بلا هدف بعد موت جده، كان يقضي معظم الوقت داخل غرفة جده ينظر إلى مخدعه ويتذكر ذكرياته معه عندما كان صغيرًا، وكيف كان يحبه بشدة, كان همام يشعر بالراحة عندما يجلس وحيدًا داخل تلك الغرفة، كان يتحدث بصوت عال مع نفسه داخل الغرفة، حتى أن أمه كانت تشعر بالقلق من أن يصيبه مس بالجلوس كل هذا الوقت داخل غرفة جده.

لم تكن الصدمة هينة على همام، رغم أنه يعلم أن تلك نهاية الجد ولابد منها، فالكل سوف يرحل عن الدنيا بما فيها من خير أو شر، ولكن الجد ترك همام مع تلك التماثيل التي لا يدري ماذا يفعل بها، فالقصة لم تكتمل بعد، والملكة خنتكاوس مازالت روحها تسكن الكهف، ومازالت اللعنة مستمرة.

كان همام يشعر أنه سقط داخل فجوة عظيمة من الحكايات والقصص، التي كانت تمر عليه عبر التاريخ الذي بدأ منذ آلاف السنين، حتى توقف الزمن أمامه ليرى ماذا سوف يفعل همام، هل يستطيع حل اللغز، أم سيبقى الحال كما هو مثلما فعل الجد، فالجد في واقع الأمر لم يفعل شيئًا سوى أنه احتفظ بالتماثيل طوال تلك الفترة، ربما أراد الجد أن يجنب القرية المزيد من اللعنات وغضب الساحرة أو الملكة التي تسكن ذلك الجبل.

شعر همام أنه سوف يجن من كثرة التفكير في كل تلك الأمور، ولم يستطع أن يخبر أحدًا بما يدور داخل ذهنه، لأنهم لن يفهموا أو يدركوا كل تلك التساؤلات المركبة والمعقدة، فالجميع يحاول الهروب من الحقيقة، حتى الشيوخ لم يذكروا له أمر التماثيل، ربما كانوا يخشون أن يعيد همام تلك التماثيل إليهم مرة أخرى.

في خضم كل تلك الأفكار تذكر همام صديقه الذي يستطيع أن يدرك كل تلك التساؤلات، وربما يدرك أشياء لا يلاحظها أحد سواه، لأنه دائمًا يفكر بطريقة المنطق والعقل.

ابتسم همام لأول مرة منذ موت جده، حيث تذكر مستر جيمس صديقه الذي افتقده كل تلك الفترة، بالفعل قرر همام العودة إلى

الأقصر ليروي لمستر جيمس ما حدث، وما سمعه من الجد قبل وفاته، ولكن هذه المرة كانت مختلفة، فالجد قد توفي، والمشكلة هنا والتي يواجهها لأول مرة كيف يستطيع أن يترك والدته وحيدة بالمنزل، أخبرها همام أنه سوف يرحل إلى الأقصر لبعض الوقت إذا سمحت له بهذا، فابتسمت الأم له قائلة:

– اذهب يا بني لعلك تشعر بالراحة هناك، ربما تجد من يستطيع أن يخفف عنك أحزانك من رفاقك، ولا تقلق علي، فأنا سأكون بخير، فقط حاول أن تنسى كل تلك الأحزان هناك.

في الأقصر حيث المقهى؛ كان مستر جيمس يجلس على نفس الطاولة المفضلة لديه، القريبة من النيل، ومعه كتاب يقرأه، ويطلق العنان لهذا الدخان الذي ينطلق من البايب الخاص به، كان من حين لآخر ينظر إلى النيل كأنه يفكر في شيء ما، أو يحاول أن يستوعب شيئًا ما، حتى وجد همام يقف أمامه.

شعر مستر جيمس بالسعادة عندما وجد همام أمامه، احتضنه وهو يبتسم ابتسامة عريضة، ولكن همام لم يستطع أن يقابلها بابتسامة مثلها، فالحزن مازال يتحكم في كل مشاعره.

– ماذا بك يا همام أشعر بالحزن في عينيك؟

– لقد مات جدي يا مستر جيمس.

شعر مستر جيمس بالحزن أيضًا على حزن صديقه همام، وشعر أنه يحمل الكثير من الهموم بداخله، ولا يستطيع أن يمنع الدموع أن تتساقط من مقلتيه.

– أنا أسف يا همام وحزين لما حدث لجدك، ولكن أنا أعلم أنك رجل مثقف ومتدين، وتعلم أنها النهاية الطبيعية لكل إنسان، وليس جدك فقط.

– أعلم ذلك مستر جيمس، ولكن الصدمة كانت مثل العاصفة الشديدة التي اقتلعتني من جذوري، فأصبحت في مهب الريح.

– أعلم هذا الشعور وأدركه جيدًا لأنني شعرت به مع موت أبي، وهذا كان سبب رئيسي في أن أهرب من انجلترا كلها وأتخصص في علوم المصريات، ومرَّ كل ذلك الوقت ولم أذهب لزيارة العائلة إلا مرات قليلة، فأنا أفضل العيش هنا بعيدًا عن أي شيء يذكرني بأحزاني يا همام.

– وهل استطعت أن تتغلب على أحزانك مستر جيمس؟

- الوقت كفيل بذلك يا صديقي، فقط دع الأمور تسير بدون تدخل منك، فكّر فيما هو قادم ولا تفكر فيما حدث بالأمس.

- نعم مستر جيمس أنت محق في هذا.

- إذن فلتخبرني بما حدث مع حبيبتك خنتكاوس أيها الولد الشقي.

ابتسم همام بل كاد أن يضحك بصوت عال قائلاً:

- لم أفعل شيئًا مستر جيمس، ولكن جدي قبل أن يتوفى أخبرني بالكثير لكي أقصه عليك مرة أخرى، لعلك تجد تفسير لما يحدث، فأنا لا أثق في مشورة أحد سواك مستر جيمس.

بالفعل صمت مستر جيمس ينصت إلى همام ليستوعب كل شيء يرويه همام له، بدأ همام يقص عليه ما أخبره به جده عما فعله الجد الأكبر ومحاولة سرقة التماثيل الثلاثة، ثم تلك الليلة المشئومة وموت أبيه، حتى انتهى المطاف إلى وجود تلك التماثيل الثلاثة في حوزته ولا يعرف ماذا يفعل بهم.

صمت مستر جيمس كأنه يريد أن يستوعب ما قاله همام له، كان بالنسبة له خارج نطاق العقل والمنطق، ولو أن شخص ما قد قص عليه تلك الرواية لكان اهمه بالجنون والكذب.

- لماذا كل هذا الصمت مستر جيمس؟

- فقط أحاول أن استوعب كل تلك الأحداث لكي أحاول أن أفهم ماذا يدور في قريتك يا همام.

- وهل توصلت لشيء من تلك الرواية يا مستر جيمس؟

- دعنا نتتبع الأحداث سويًا ونفكر بصوت عال، ربما نستطيع الفهم ونجد إجابة لبعض تلك التساؤلات.

- مثل ماذا مستر جيمس؟

- في بداية الأمر ما حدث في تلك الليلة شيء مهم، فالملكة خنتكاوس قد تشكلت في هيئة طائر ضخم في الليلة القمرية، وهذا يعني أنها ربما تكون في أقوى حالاها أو العكس، وربما كان هذا الساحر يظن أنه يستطيع أن يفعل ما فعله لأن روحها وقدرها تكون ضعيفة في الليالي القمرية، وهذا كان الخطأ الفادح الذي أودى بحياته وحياة من معه.

– نعم مستر جيمس هذا تحليل منطقي وجيد.

– إذن لو كانت خنتكاوس تملك كل تلك القدرات، لماذا لم تستطع استرداد التماثيل من القرية؟

– ربما لا تستطيع ذلك لأن التماثيل مصدر قوتها وسحرها، ولذلك لا تستطيع القيام بذلك.

– كلام جيد يا صديقي، ولكن لماذا لم يحاول جدك أو أهل القرية إعادة التماثيل إلى ذلك الكهف، ولماذا حاول أباك أن يفعل ذلك؟

– في الواقع لا أعلم لماذا، ولا أعلم لماذا لم يعد أبي من الجبل، وماذا حدث له هناك.

– إذن هناك حلقة مفقودة في تتبع تلك الرواية، فنحن لا نملك إجابة واضحة لعدم عودة التماثيل إلى الكهف وموت أبيك الغامض.

أكمل مستر جيمس حديثه إلى همام قائلاً:

- المشكلة هنا يا همام أن رواية جدك، أو ما وجدناه داخل الكهف لا يخبرنا بكيفية إعادة تلك التماثيل إلى الملكة خنتكاوس، وكيف يمكن أن نعالج مشكلة اللعنة التي أصابت قريتكم.

- نعم يا مستر جيمس، لم يخبرني جدي بشيء يخص كيفية إبطال تلك اللعنة التي أصابت القرية.

- صديقي همام، هناك شيء لم نفكر به.

- وما هو ذلك الشيء الذي لم نفكر به؟

- لماذا سمحت الملكة خنتكاوس لك بالذهاب والصعود إلى الجبل، ولم تمنح أحد آخر من القرية هذه الميزة؟

- لا أعلم لماذا فعلت ذلك معي!!

- أعتقد يا همام أن خنتكاوس تركت لك مهمة إعادة تلك التماثيل الثلاثة إلى الكهف، لتستعيد قدرها مرة أخرى، وقد سمحت لك بالصعود إلى الجبل لكي تعلم أنها تريد ذلك منك.

- هذا منطقي أيضًا بالنسبة لي، ولكن السؤال الأهم الآن كيف نعيد تلك التماثيل إليها مرة أخرى؟

– أعتقد أنه لابد أن تصعد إلى الجبل ومعك التماثيل الثلاثة، ولكن عامل الوقت هنا ضروري لكي تنجح في ذلك يا صديقي.

– كيف ذلك يا مستر جيمس؟

– انتظر عندما تأتي الليالي القمرية، اصعد إلى الجبل، أظن أن هذا هو الوقت المناسب لتلك الملكة أيضًا، فربما تستطيع أن تفعل ما لم يفعله أحد من قبل.

شعر همام أنه ربما هذا هو الرأي الصواب، أو على الأقل المنطقي في كل تلك الرواية والتي كانت أحداثها لا علاقة لها بالواقع أو المنطق، شعر أنه لابد أن يعود إلى الجبل مرة أخرى، ولكن تلك المرة مختلفة، فسوف يحمل التماثيل ليعيدها إلى مكانها الأصلي، فربما يعود كل شيء إلى طبيعته مرة أخرى.

الجبل

عاد همام إلى القرية ومازال كلام مستر جيمس يتردد صداه داخل ذهنه الذي يفكر فيه بطريقة متواصلة، كاد يشعر أن نهاية كل هذا الجدل والحيرة سوف تكون الجنون، بل سوف يكون مثل تلك المرأة العجوز التي تسير في طرقات القرية وتسكن في عالمها بالقرب من الجبل.

كان هناك متسع من الوقت أمام همام لكي يفكر مليًا فيما سوف يفعله أو يقرره، فالليالي القمرية سوف تحدث بعد أسبوعين على الأقل، ولكن المشكلة هنا كيف يخبر والدته أو يقنعها أنه يجب عليه أن يصعد إلى الجبل، فالأم لن تسمح بذلك أبدًا، بل ربما لن تسمح له حتى بالخروج من المنْزل، فاللعنة في الواقع لم تصبها، ولكنها عاشت طوال حياتها في ظلال تلك اللعنة، فالأم لم ترَ للسعادة طريق منذ بداية زواجها، فالزوج رحل دون أن يعود إليها مرة أخرى، تركها تعيش في حزنها وآلامها باقي عُمرها،

تحتضن همام الذي أصبح لها الابن والزوج والأخ، كذلك رحيل الجد الذي كان يخفف آلامها ويجفف دموعها التي كانت تسيل على خديها، لقد رحل الجد أيضًا وتركها وحيدة، ولم يبقَ لها من حطام الدنيا سوى ابنها همام، فكيف يستطيع همام أن يخبرها بهذا القرار، أنه لابد أن يصعد إلى الجبل.

قضى همام الكثير من الليالي في التفكير كيف يقنع والدته بهذا، ولكنه وجد أن أفضل طريقة ألا يخبرها بشيء، حتى لا تفزع وتحاول أن تمنعه بأي وسيلة من الصعود إلى الجبل، خاصةً أن بداخله شعور يراوده أن تلك الملكة لن تسمح لشيء أن يؤذيه، لأنها لو أرادت ذلك لكانت فعلت ذلك عندما صعد الجبل في أول مرة.

إذن لا مجال للتراجع، أو أن يعلم أحد بما سيفعله في الوقت القريب، وبدأ همام يجهز لتلك الرحلة، التي لم يكن يعلم هل سيعود منها أم لا، كانت والدته هي المشكلة الكبرى بالنسبة له، فلو حدث له شيء ماذا ستفعل من بعده، فالعمر قد تقدم بها وليست كما كانت من قبل.

حانت اللحظة المهمة في حياة همام، كانت تلك الليلة ليلة قمرية كما أشار عليه مستر جيمس، فأعدَّ حقيبته، وضع بها الثلاثة تماثيل والقنديل، خرج من المنزل بهدوء حتى لا تشعر به والدته أثناء خروجه، وبالفعل اتخذ همام طريقه نحو الجبل، كان القمر مكتملاً، وظل همام يتبعه على ضوء القمر كأنه يتبعه أيضًا نحو الجبل، ليكون رفيقه في تلك الرحلة الصعبة التي لا يعلم هل هي صواب أم خطأ، كان يسير نحو الجبل بخطى ثابتة، حتى بدأ الصعود إلى الجبل فشاهد الذئاب السوداء تقف على مسافات قريبة منه تنظر إليه، كأن شيئًا ما أمرها أن تفسح الطريق له ليصعد إلى الكهف.

صعد همام حتى وصل إلى حافة الجبل، أراد أن يلقي نظرة على قريته قبل أن يدخل الكهف لعلها تكون الأخيرة، خاصة على منزله، حيث شعر أنه كان يريد أن يودع والدته لأخر مرة، ربما لن يعود إليها مرة أخرى، كادت الدموع تتساقط من عينيه قبل أن يدخل الكهف، وكان التردد مازال يسكن قلبه حتى إنه فكر للحظات أنه يجب عليه الهبوط مرة أخرى ليرعى والدته، وينسى تلك التماثيل والملكة، بل ويرحل من تلك القرية للأبد.

أضاء همام القنديل ثم سار داخل الكهف حتى تخطى مدخل المعبد ووصل إلى تمثال خنتكاوس، فسلط الضوء على وجهها يتلمس ملامحها بهدوء قبل أن يخرج التماثيل ليعيدها مرة أخرى إلى مكانها.

كان همام يتمنى بداخله أن يكون ذلك التمثال حي لكي تشعر به ويتحدث معها، ربما تمنى أن يولد عندما كانت في تلك الدنيا، فربما وجدت معه قصة أخرى غير تلك القصة عندما يحدث اللقاء بينهما, ربما تشعر به وبحنينه إليها وعاطفته التي تزداد كلما تلمس ملامحها الرقيقة.

وضع همام القنديل على حافة الطاولة وبدأ في فتح حقيبته، أخرج التمثال الأول ببطئ ووضعه على الطاولة، ثم أخرج التمثال الثاني ووضعه على الطاولة بالتوازي مع التمثال الأول، ثم أخرج التمثال الأخير ووضعه بجوار التمثالين الآخرين، تراجع همام للخلف منتظرًا ماذا سيحدث بعد ذلك، شعر بالخوف الشديد وتراجع للخلف حتى لمست يديه الحائط الذي خلفه.

مرت دقائق على همام كأنها الدهر كله، يسلط الضوء بكل اهتمام نحو التماثيل ليرى ماذا سيحدث لهم على تلك الطاولة.

بعد دقائق بدأت التماثيل تتحرك ببطئ كأنها تتراقص على الطاولة، اتخذ كل تمثال مكانًا ووضعًا معينًا في شكل مثلث، فاتجاه التماثيل كانت للداخل، وكانت الوجوه الخاصة بالتماثيل تتغير وتتشكل كأنها تماثيل حية، وليست مجرد تماثيل من الصخر.

كان قلب همام ينبض بقوة وبشدة، حتى شعر أن قلبه سوف يتوقف من الفزع والخوف مما يحدث أمام عينيه على تلك الطاولة.

عندما اكتملت حركة التماثيل لتشكل قاعدة مثلث؛ بدأ ضوء قوي يخرج من رؤوس التماثيل، للتقابل معًا وتشكل شكل هرمي من الضوء الساطع بقوة، بلونه الأبيض الزهري، كأنه مثل ضوء الشمس، أنار هذا الضوء المكان كله، ولم يستطع همام أن ينظر من شدة الضوء، فحاول أن يغطي عينيه بيده حتى لا يصاب بالعمى، وفي تلك اللحظة بدأ الشكل الهرمي يكبر ويزداد في الاتساع، ثم بدأ الضوء يهدأ، وشعر همام أن شيئًا ما يخرج من ذلك الضوء، وجد أن الضوء يتشكل أمامه كأنه يجسد ذلك التمثال الخاص بخنتكاوس، حتى أصبحت كأنها امرأة حقيقية رائعة

الجمال تتشكل من ذلك الضوء الأبيض الزهري، الذي يرسم مجال ضوئي شديد حولها.

تغلب الخوف على همام ولم يستطع أن يتحمل ما يحدث أمام عينيه، كان هذا مستحيلاً وليس منطقيًا، ربما كله خيال وأوهام نتيجة الضغط النفسي والعصبي لما صادفه في خلال تلك الفترة السابقة، لكنه لا يستطيع أن يكذّب ما يحدث أمامه، وكان الخوف والفزع يسيطران على جوارحه حتى كاد يسمع خفقات قلبه الشديدة، ثم لم يعد يشعر بشيء، فقد أغشي عليه من هول ما يراه داخل المعبد، وفي قدس الأقداس الخاص بالملكة خنتكاوس.

الملكة خنتكاوس

بعد قليل بدأ همام يشعر أنه يستعيد وعيه، شعر أن عيناه تلتقطان بعض الضوء الساطع مثل ضوء الشمس، كأنه كان نائمًا في العراء ثم استيقظ على سطوع الشمس، وأن ما حدث ليس إلا حلم فقط، وكل ما شاهده عبارة عن أوهام أو تخيلات بداخله فقط.

بدأ همام يحاول أن يقف على قدميه مرة أخرى، فوجد الملكة خنتكاوس تقف أمامه وهي تبتسم له، فزع فزعًا شديدًا وكاد يهرب من المكان بسرعة متجهًا نحو مدخل الكهف، وجدها أمامه قائلة:

- لا تخف يا همام أنا لن أوذيك، فقط تمهل وانتظر قليلاً، فلن تغادر المكان قبل أن أسمح لك بذلك.

بدأ همام يستعيد بعض من الهدوء حتى يعي ماذا يحدث له داخل الكهف، وهل هذا الضوء عبارة عن روح خنتكاوس؟!.

أجابته الملكة قائلة:

– نعم أنا روح خنتكاوس يا همام كما تظن أنت.

– وكيف عرفتِ أنني أفكر في ذلك؟!

– لا تنس يا همام، أنا استطيع أن أفعل أشياء كثيرة، وأعرف ماذا يدور في عقلك، فلا تخف...

بدأ همام يشعر بالأمان والهدوء، لأنها لو أرادت أن تفعل شيئًا لفعلته دون أن تنتظر، هنا بدأ همام ينظر إليها بتأمل، أخذ يتطلع إلى ملامحها الجميلة، حيث الشعر الأسود الناعم الذي يتدلى خلف ظهرها كأنه ليلة لم يسطع القمر في سمائها، والبشرة البيضاء كأنها خُلقت من ضوء الشمس، حتى لا تستطيع النظر إليها لفترة طويلة، والعيون ذات اللون الأخضر مثل الزمرد المتلألئ تحت ضوء الشمس.

شعر همام أن خنتكاوس كانت امرأة رائعة الجمال تسحرُ من يقترب منها من الرجال، فهو يراها فقط روح من الضوء وقد سحرته بجمالها، فما بال من عاش بجوارها؟.

ابتسمت خنتكاوس ونظرت إليه فتذكر همام أنها تستطيع أن تقرأ أفكاره، ولابد أنها فهمت ما كان يدور في ذهنه، فاحمر وجهه ونكس رأسه من الخجل.

– أشكرك يا همام على ما فعلته، كنت أعلم منذ وقت طويل أنك شاب ذكي، وسوف تقوم بتصحيح ما فعله أجدادك معي منذ وقت طويل.

– سيدتي... تلك اللعنة مرت على أجيال في القرية حتى الآن يعيشون في رعب وخوف، ولا يعلمون كيف يمكن أن يفعلوا الصواب، ولكن الحظ كان بجواري في تلك اللحظة.

– لقد فعلت شيئًا عظيمًا لي، وأريد أن أكافئك يا همام... أخبرني ماذا تريد؟

صمت همام ولم يتفوه بشيء بل ظلّ صامتًا...

– أخبرني يا همام ماذا تريد؟ هل تريد مجوهرات أو مال أو سلطة؟ فقط أخبرني يا همام.

– سيدي شكرًا لك، أنا لا أريد أي شيء من تلك الأشياء، فأنا لا أطمع في الدنيا، وكل ما أبغاه العيش بهدوء مرة أخرى، وتعود الحياة طبيعية إلى قريتنا.

– عجيب أمرك يا همام، أنا أستطيع منحك قوة وسحر لا يقاومه أحد، وترفض كل ذلك!

– فقط لي طلب واحد يثير فضولي، وأتمنى أن تخبريني به حتى لا أعيش طوال حياتي أفكر فيه.

– وما هو يا همام؟

– لماذا اخترتِ هذا الجبل لتسكني فيه في حياتك وبعد موتك؟

– إنها قصة طويلة يا همام، وإذا أردت أن أحكيها لك فلك هذا.

ابتسم همام لها ابتسامة بسيطة، حيث كان التوتر والقلق مازالا يسيطران عليه، مدت يدها نحوه قائلة:

– المسها يا همام.

شعر همام بالخوف، وتراجع للخلف خشية أن يلمس ذلك الضوء العجيب السحري، فربما يحدث مكروهًا له.

ابتسمت خنتكاوس له قائلة:

- لا تخف يا همام، فقط المس يدي إذا كنت تريد أن تعلم الكثير عن حياتي وحكايتي.

كان همام مترددًا في البداية. ولكنه عندما لمس ضوء يدها بأطراف أصابعه؛ وجد أن كل شيء حوله قد اختفى، المعبد والجدران وكل شيء تبدل، وبدأ يشعر أنه يعود بالزمن للخلف بسرعة هائلة، كأن كل شيء يتغير ويتبدل حوله بطريقه ما، لم يشعر بما يحدث له حتى توقف الزمن هم في صحراء جرداء، وكأنه يشاهد فيلم سينمائي مثل تلك الأفلام التي كان يشاهدها مع مستر جيمس في دار السينما بالأقصر، لكن مع الفارق بين ما كان يشاهده في دار السينما وما يعيش بداخله مع خنتكاوس الآن، فهذه المرة مع جميلة الجميلات خنتكاوس وليس جيمس، وما يشاهده مثل الواقع، وليس باللون الأبيض والأسود، بل يشعر أنه موجود بداخل المشهد، بجوار كل ما يحدث، فالأشخاص ظاهرين حولهم ولكنهم لا يشعرون به ولا بخنتكاوس، ما يشعر به ويشاهده لن يصدقه أحد، حتى إنه نفسه لا يصدق ما يراه وهو برفقة خنتكاوس.

نظرت إليه خنتكاوس قائلة:

– من تلك الصحراء تبدأ الحكاية التي عاشت منذ آلاف السنين حتى الآن يا همام، تلك الصحراء كانت البداية لقصة لم يعلم أبطالها أنها سوف تبقى مثل تلك الجبال صامدة، ولا يعلم عنها شيئًا سوى من عاشوها أو عاصروها فقط.

أرض كنعان

كان شيئًا عجيب وغريب بالنسبة لهمام، حيث وجد نفسه داخل الأحداث يشاهدها كأنه جزء منها، لم يكن يتصور أن يحدث له شيء مثل هذا، فعندما شاهد لأول مرة فيلمًا سينمائيًا كان يشعر أنه مثل السحر، حدث ذلك حين شاهد أُناس يتحركون خلال ضوء على حائط، ولكن تلك المرة بفعل سحر عظيم يستطيع أن يرى ما حدث منذ آلاف السنين أمام عينيه يتابعه، بدأت خنتكاوس بسرد قصتها قائلة:

- في صحراء كنعان كانت أمي تعيش مع جدي بجوار بئر من المياة العذبة، وكانت شديدة الجمال كما تراها أمامك، وكان جدي ساحرًا عظيمًا، ولكنه فضَّل أن يترك كل شيء ويعيش في الصحراء مع أبنائه وأمي، حيث يستطيع أن يتأمل ويعيش بعيدًا عن كل الصراعات التي كانت تحدث من حوله، كان يشعر أن ما يملكه من قدرة كساحر عظيم نقمة وليست شيئًا جيدًا، وتعلمت

أمي منه الكثير من العلوم، وسخر لها ممالك عظيمة من ممالك الجن لتكون طوع يديها، وذات يوم عسكر جيش ضخم من جيوش الفرعون بالقرب من ذلك البئر لكي يستريح، ويجمع بعض الماء ليواصل رحلته في الصحراء، شاهد قائد الجيش أبي – والذي كان قائدًا شابًا – أمي بجوار ذلك البئر، فامتلكت قلبه من أول لحظة بسبب جمالها الرائع، وعيونها التي لا يقاومها أحد، كذلك أحبته أمي لأنه كان طيب القلب رقيق الإحساس، فشعرت أنها سوف تعيش معه في سلام وحب.

تكمل الملكة حديثها وهي تستخدم سحرها لكي تُجسد كل تلك الأحداث لهمام، ليتابعها وهو يلمس ضوئها فيستطيع رؤية كل ذلك، قالت له:

– في بادئ الأمر لم يقبل جدي أن تتركه أمي، ولكنه عندما شعر أنها ترغب في ذلك لم يتردد أن يزوجها لذلك القائد، ولم يكن أبي يعلم أنها ساحرة عظيمة، ولكن أثناء حروبه كان ينتصر ويشاهد أشياء عجيبة تحدث أثناء المعارك، فكان يخبر أمي بها فتضحك لأنها كانت تساعده وتسخر جيوش من الجن يساعدوه في

حروبه، حتى صار قائدًا عظيمًا وانتشر صيته في جميع أنحاء البلاد، وسمع الفرعون نفسه بانتصارات ذلك الشاب.

كان والدي يشعر أن أمي هي أيقونة حظه وسبب سعادته، فكان لا يفارقها أبدًا، ومرت حياتهم في سعادة وحب وأنجبتني أمي، وأصبح أبي قائد جيش الفرعون العظيم، والمُقرب من الفرعون وبلاطه الملكي.

قاطعها همام قائلاً:

- كل هذا حدث ولم تخبر والدتك والدك أنها ساحرة؟ وأنها كانت تساعده لكي يحقق النصر في كل معاركه؟

- بالفعل لم تفعل ذلك، خوفًا من أن والدي عندما يعلم ذلك يتغير حبه لها، أو يعلم أحد بقدراتها، وخاصة في البلاط الملكي، فأمي كانت ترغب أن تعيش مع والدي حياة هادئة بعيدًا عن الصراعات التي تحدث بين الكهنة والسحرة من أجل إرضاء الفرعون، لذلك عندما علمتني أمي السحر وسخرت لي الكثير من الجان ليكونوا جندًا مسخرة لي؛ أقسمتُ لها ألا أخبر أبي بذلك، أو أي شخص آخر حتى أعيش في سلام وهدوء.

- وهل حدث ذلك بالفعل؟

- نعم في بادئ الأمر تكتمت على سر أمي، ولم أقل ذلك السر لأحد، حتى جاء اليوم الذي أراد أبي أن أكون كاهنة في قدس الأقداس للإله آمون، وكان ذلك نقطة تحول بالنسبة لي.

- كيف أيها الملكة؟

- كنا داخل المعبد نتعلم الكثير عن الحياة ما بعد الموت، والطقوس الدينية المرتبطة بعبادة الإله آمون، والكثير من العلوم، مثل علوم التحنيط والسحر، ولكي تكون كاهن عظيم لابد أن تمتلك القدرة على إقناع الفرعون والعامة أيضًا.

- وكيف يحدث ذلك أيتها الملكة؟

- كان ذلك من خلال إظهار قدرات غير طبيعية من الحكمة والتفكير المنطقي، وتقديم النصيحة للفرعون في أمور كثيرة، وقد تجلت قدراتي في ذلك حتى إنني كنت أسحر العامة ليؤمنوا أن الفرعون هو ابن الإله، وهذا كان يسعد الفرعون كثيرًا، فأصبحت الكاهنة الوحيدة التي كانت صغيرة السن والمقربة لكل الأمراء والأميرات في ذلك الوقت، بل كان الفرعون يطلب

مباركتي له قبل الخروج في أي قتال أو محاربة للأعداء، وهذا سبب لي الكثير من المشاكل مع الكهنة القدامى ومن يتوددون إلى الفرعون، لأنهم شعروا بخطورتي عليهم، وعلى حب الفرعون لهم، ولكن كل هذا لم يكن مؤثر بالنسبة لي.

- كيف أيتها الملكة؟

- كنت أعلم قدراتي، وأنهم لا يستطيعون أن يفعلوا شيئًا سوى المؤامرات والمكائد لإزاحتي من طريقهم، ولكن الفرعون لم يكن يصدق أي شيء من كل ذلك، بل كان كل يوم يمر أشعر أنني الملكة على كل تلك البلاد، بسبب سيطرتي الكاملة على الفرعون والبلاط الملكي أيضًا.

أم همام

لم يشعر همام بالوقت وهو في رفقة الملكة خنتكاوس، حيث مرت عدة أيام ولم يشعر أن أيامًا كاملة قد مرت عليه، فكان يشعر أن عدة دقائق أو القليل من الساعات قد مرت عليه داخل الكهف مع خنتكاوس، ولكن الوضع في القرية كان مختلفًا تمامًا وخاصة في منزل همام.

ففي صباح اليوم الذي تلى صعود همام إلى الجبل دخلت والدة همام إلى غرفته لكي تطمئن عليه، ولكنها لم تجده بالغرفة، وجدت أن مخدعه مرتب، مما يدل على أن همام لم ينم في غرفته في تلك الليلة، فشعرت بالقلق، ولكنها حاولت أن تتمهل في الظن وقالت في نفسها ربما ذهب لصديقه خالد ولم يعد حتى الآن.

كان الانتظار يقتلها والشيطان يوسوس لها بالكثير، حتى إنها ذهبت إلى غرفة الجد لتبحث عن التماثيل فلم تجدها، شعرت بالذعر، فربما تلك الملكة أو الروح قد سحرته وصعد الجبل لها،

وتذكرت كلمات المرأة العجوز عندما أخبرت همام وهو صغير عن تلك الملكة التي تعيش في أعلى الجبل.

شعرت الأم بالمرارة الشديدة عندما تذكرت زوجها الذي اختطفته تلك الملكة من أحضانها بنفس الطريقة، والآن سوف تفقد ولدها الوحيد مثل ما فقدت زوجها من قبل.

أسرعت الأم خارج منْزلها وهي تتخبط في المارة في الطرقات، كانت تهرول نحو بيت خالد لكي تسأله عن همام، كانت تطرق منْزل خالد بشدة حتى خرج خالد لها مفزوع وقال:

– خيرًا يا أم همام ماذا حدث؟

– أين همام يا خالد؟

– لم أشاهده منذ فترة طويلة يا عمتي.

سقطت أم همام على الأرض تبكي وتلطم خديها وتصرخ، وتجمع الكثير من أهل القرية حولها وهي تصرخ قائلة:

– لقد ضاع همام أيضًا يا خالد، لقد سحرته الملكة وصعد الجبل... ضاع همام مني يا خالد.

– اهدئي يا عمتي، سوف أبحث عنه في كل مكان، ولن أعود بدونه.

انطلق خالد نحو منزل الشيخ عثمان ليخبره بما حدث، وكيف يمكن أن يصعدوا إلى الجبل ليبحثوا عن همام. شعر الشيخ عثمان بالحزن، نكس رأسه ولم ينطق بكلمة، بل صمت حزينًا على همام، نظر خالد له متعجبًا وقال:

– لماذا أنت صامت يا شيخ عثمان؟ هل سنترك همام يموت أيضًا مثل أبيه؟

– ليس في يدي شيء يا بني، فنحن لا نستطيع مواجهة تلك الملكة، ويكفينا ما حدث في القرية بسبب لعنتها لأهل القرية.

– يا شيخ عثمان لن أسكت، ولن أترك صديقي يموت وتأكله الذئاب في أعلى الجبل، أنا سوف أصعد، ولن أعود بدون همام، لن أعيش مثل النساء، بل سأموت مثل الرجال يا شيخ عثمان.

خرج خالد يجري نحو المسجد، وصعد أعلى مئذنة المسجد ثم نادى على أهل القرية من الرجال لكي يتجمعوا حول المسجد، وبالفعل بدأ أهل القرية يتجمعون وينظرون إلى خالد ويتسائلون

ماذا حدث لكي ينادي عليهم خالد بهذه الطريقة. عندما شعر خالد أن معظم شباب ورجال القرية قد تجمعوا حول المسجد خطب فيهم قائلاً:

– اليوم قد اختفى همام في الجبل مثل ما حدث مع أبيه من قبل، ومع الكثير من أبائنا وأعمامنا، وتركناهم في الجبل يموتون وتأكلهم الكلاب والذئاب، ونحن نجلس في منازلنا مثل النساء نبكي عليهم، ولا نفعل شيئًا بسبب إيماننا أن هناك لعنة على تلك القرية، وكلما حدث شيءٌ سيءٌ نقول إن هذا حدث بسبب اللعنة، وبسبب الملكة التي تسكن هذا الجبل، أما اليوم فلن نسكت، ولن نضع رؤوسنا في الرمال، أنا ذاهب لأبحث عن همام في الجبل، ولن أخشى تلك اللعنة أو حتى الملكة ذاتها، فأنا لا أريد أن أعيش مثل النساء، بل أريد أن أموت مثل الرجال، فمن يشعر أنه رجل ويريد أن يذهب معي ويصعد إلى الجبل للبحث عن همام فسوف أنتظره عند مدخل الجبل الآن.

هبط خالد من فوق المئذنة متجهًا إلى منْزله، أخرج البندقية واتجه نحو أم همام التي افترشت منتصف الطريق تبكي وتصرخ على فقدان همام، وقال لها:

- لا تبكِ يا أماه، فأنا صاعد إلى هذا الجبل ولن أعود بغير همام، ثقي بالله أننا سوف نعود معًا أو نموت معًا في أعلى هذا الجبل.

أسرع خالد نحو الجبل ينتظر من سيأتي من الرجال والشباب معه ليصعد إلى الجبل باحثًا عن همام، كان يشعر أن معظم الشباب والرجال لن يأتوا بسبب الخوف الذي تربى داخل عقولهم من اللعنة وسحر الملكة لهم، فالكل يخشى حتى الاقتراب من الجبل، فما بالك بالصعود إلى الجبل ذاته، فهم لا يعلمون ماذا ينتظرهم داخل هذا الجبل، هل الذئاب أم الخوف الذي يسيطر عليهم، تلك هي المشكلة التي تواجه خالد الآن.

لم يكن همام يدرك ما يحدث في القرية، وأن خالد ينتظر شباب القرية أسفل الجبل، فكان منهمكًا مع الملكة خنتكاوس التي جعلته في حالة خاصة من السحر، يرى ما تسرده عليه من أحداث حدثت منذ آلاف السنين، فلم يشعر بالوقت لأن عامل الزمن قد توقف بالنسبة له. كان همام ينظر إلى خنتكاوس وانبهاره بجمالها يسيطر على تفكيره، ولكنه في نفس الوقت مُنصت إليها لأنه أول من استمع إلى قصتها من أهل القرية، وبالتالي يستطيع أن يربط الماضي مع الحاضر، لكي يفهم الكثير من الأشياء التي كانت غامضة بالنسبة له.

فجأة لمع سؤال في ذهن همام فنظر إلى خنتكاوس قائلاً:

– لماذا كانوا يطلقون عليكِ الملكة يا سيدتي؟

ابتسمت خنتكاوس لهمام قائلة:

– يبدو أنك متلهف لتصل لنهاية الرواية قبل أن أرويها لك...

– لا يا سيدتي، لكني كنت دائمًا أتسأل لماذا كان لقبك الملكة، رغم أن كتب التاريخ لم تذكر شيئًا عنك سيدتي؟

– عندما ذاع صيتي، كنت أقوم بأشياء لا يستطيع أن يفعلها أحد، خاصة عندما جاء الفيضان في أحد الأعوام يغمر كل شيء، كانت الناس تجري في الطرقات، والماء يتتبعهم ليغرقهم، وكنت في تلك اللحظة في قدس الأقداس، سمعت صرخات النساء خارج المعبد تطلب الرحمة من الإله آمون، فخرجت مسرعة وشاهدت الفيضان يغزو كل شيء، والماء يغمر النساء والأطفال وكل ما في طريقه، حتى كاد يصل إلى المعبد العظيم، فلم أستطع أن أمنع نفسي من حماية هؤلاء الضعفاء والمساكين، وكان لابد أن أظهر قوتي وسحري في تلك اللحظة، بالرغم أن والدتي دائمًا كانت تحذرني من ذلك، ولكني فعلت ذلك بتلقائية، فرفعت يديَّ كأنني أتصدى لهذا الفيضان، حتى أوقفت المياه الغامرة التي كادت تغمر آلاف البشر أمام المعبد، ثم بدأت أتحرك في اتجاه الفيضان، وكلما كنت أخطو خطوة يتراجع الفيضان خطوة، كنت أسير بين العامة الذين ملأ الرعب قلوبهم، ولكن عندما شاهدوا ما أفعله من معجزة؛ بدأوا يسيروا خلفي وأنا أحاول أن أقهر هذا الفيضان،

حتى أصبحت مياه الفيضان تعلوا أمامي كأنها حائط عظيم من الماء، تخطى ارتفاعه عشرات الأمتار.

لم يصدق العامة ما أفعله لأنهم لم يشاهدوا ذلك من قبل، وعندما انتهيت من إيقاف الفيضان، كأن هناك ساتر خفي يحجز المياه خلفه، التفتُ خلفي فوجدت آلاف البشر يسجدون لي كأني إله أو الفرعون نفسه، شعرت أن هذا سوف يغضب الفرعون مني فأمرتهم ألا يسجدوا لي مرة أخرى، ولكني فشلت، وسمعت من يطلق علي ملكة الفيضان، لقدرتي على حمايتهم من ذلك الفيضان.

– وهل فعلتِ ذلك حقًا سيدتي، كيف فعلتِ ذلك؟

– لا تنس يا همام أن الكثير من ملوك الجان العظام يخضعون لأوامري، وأستطيع فعل الكثير والكثير، ربما اكثر مما يدركه تفكيرك.

– ماذا حدث بعد ذلك يا سيدتي؟

- بالطبع انتشر الخبر في المدينة بأكملها، فكان العامة يذهبون إلى ذلك الجدار الذي بنيته من الماء ليشاهدوا تلك المعجزة المتمثلة أمامهم، حتى فرعون فعل ذلك ولم يصدق أنني فعلت ذلك.

- لابد أن الفرعون كان سعيدًا بذلك يا سيدتي؟

- لقد ندمت كثيرًا لما فعلته، لأنني كنت أرغب أن أعيش في سلام مثل أمي، أجد رجلاً لا يعرف حقيقتي، ويتمنى أن يتزوجني، فقط مثل أي فتاة كانت في عمري آنذاك.

- وهل أنتِ مازلتِ فتاة، أي لم تتزوجي من قبل يا سيدتي؟

ابتسمت خنتكاوس وتجاهلت سؤال همام لكي تكمل حديثها قائلة:

- بعد عدة أيام وجدت الفرعون يطلب لقائي في قدس الأقداس، بعيدًا عن قصره وعن زوجته، وقد تعجبت لذلك وشعرت أن هناك شيئًا ما سوف يغير حياتي بعد لقاء الفرعون.

- ماذا كان يريد الفرعون يا سيدتي؟

- عندما نظرت في عين الفرعون شعرت بما يريده مني، فالطمع كان يملأ عينيه وقلبه، بلاشك كان يفكر كيف يستطيع أن يسخر

سحري وقدراتي الخارقة من أجل مُلكه، وإنشاء إمبراطورية عظيمة، فقدراتي تجعله ليس فرعونًا لمصر فقط، بل قائدًا لكل العالم القديم بأكمله.

نظرت خنتكاوس إلى همام وكانت ملامحها حزينة للغاية، كأن كارثة حدثت ومازالت تعيش بداخلها حتى الآن.

– ماذا بكِ يا سيدتي؟

– أخبرني الفرعون أنه يريدني زوجة وملكة معه على حكم مصر، وأن هذه رغبته، وعندما أخبرته أن للبلاد ملكة تجلس بجواره على عرش مصر، أخبرني أن أنسى أمرها، فسوف ترحل للأبد، مما جعلني أشعر بالقلق أكثر، فأنا لا أريد أن أقحم نفسي بذلك، ولكني أخبرته أن يدعني بضعة أيام حتى يمنحني الإله آمون الرؤيا والقرار الصواب في ذلك، فأنا كاهنة في خدمة الإله، وليس بيدي أن أقرر مصيري، بل آمون هو من يقرر ماذا أفعل، وماذا يريد، هل هو موافق على زواجي أم يريدني في خدمته في المعبد؟.

خالد وشباب القرية

كان خالد ينتظر أسفل الجبل وشعر أن الوقت يمر، ولم يكن الوقت في صالح همام، كان بداخله شعور أنه لا يستطيع أن يفعل ذلك بدون مساعدة أهل القرية، ولكن كيف يعود إلى القرية ويواجه نظرات أم همام، ويشعر بفشله في محاولة إنقاذ صديقه.

كان الوقت يمر والخوف داخل خالد يزداد، حتى شاهد من بعيد بعض الشباب قادمون لمناصرته وهم يحملون بعض العصي، بدأ خالد يشعر أن كلامه لم يذهب هباءًا بل وجد من يؤمن بفكرته، وأن هذا الوقت هو الوقت المناسب لإظهار معدن أهل القرية.

بعد قليل بدأت أعداد من انضموا إلى خالد تزداد، وكان بعضهم يحمل البنادق والسيوف للصعود إلى الجبل والبحث عن همام في متاهاته.

أشار خالد لأهل القرية بالتحرك نحو الجبل، ولكن بعد عدة أمتار بدأت تظهر الذئاب السوداء، كشرت عن أنيابها، وكلما اقترب

أهل القرية أصبحت الذئاب في حالة تأهب للهجوم على من يحاول أن يتقدم نحو قمة الجبل.

بدأ بعض الرجال والشباب في إطلاق الأعيرة النارية صوب الذئاب لقتلها، ولكن كانت المفاجأة أن الذئاب لم تلقَ مصرعها أو تموت، كأن شيئًا لم يحدث، وكأن تلك الأعيرة النارية تُطلق في الهواء، أو تخترق أجسادهم دون أن يحدث شيء بالنسبة لهم.

من لا يحملون سلاحًا من أهل القرية كانوا يقذفون الحجارة تجاه تلك الذئاب، لعلها ترحل وتفسح لهم الطريق ليصعدوا إلى الجبل، ولكنهم فشلوا في ذلك أيضًا.

أمسك خالد بعصا غليظة وقرر أن يصعد نحو تلك الذئاب ويصارعها، إما أن يقتلها أو تقتله، وتبعه بعض الشباب الثائر، وعندما اقتربوا من الذئاب انقضت عليهم من أعلى، فشعروا بالرعب والخوف، وأن تلك العصي لا تؤلمهم أو حتى تشعرهم ببعض الألم، فزع أهل القرية لأنهم تأكدوا أنها ليست ذئاب حقيقية يمكن قتلها، ولكنها أشياء أخرى في شكل ذئاب، لا قبل لهم بمقاتلتها أو التغلب عليها.

بدأ أهل القرية يتقهقرون إلى الخلف خوفًا من الذئاب، حتى شعروا باليأس واختاروا طريق العودة إلى القرية مرة أخرى.

كان خالد آخر من غادر الجبل وهو يبكي ويصرخ على همام، كان صدى صوته يرج الجبل بأكمله، والقرية كلها تسمعه وهو ينادي على همام دون جدوى.

كان يشعر بالخزي والعار، كيف ينظر في عين أم همام، وبما يخبرها؟ هل يقول لها لقد ضعفت وشعرت بالخوف ولم أستطع أن أصعد إلى الجبل؟ أم يقول لها البقاء لله يا عمتي في صديقي وابنك الوحيد.

عند عودة الرجال بدأت النساء والعجائز تتجمع حول أم همام، كانت القرية حزينة لما حدث لهمام، وبدأ النواح والبكاء والصراخات والعويل على فقدان همام حتى غابت الشمس عن القرية والحزن يملأ كل الأماكن، الكل حزين على المرأة المنكوبة، فالزوج رحل وتركها تتحمل تربية ابنها الوحيد، ثم الجد الذي كان السند لها وحائط الصد لكل الأزمات، فشعرت أنها أصبحت مثل العارية في مهب الريح، والآن الولد الذي بقى لها من حطام الدنيا، وكانت تُمني النفس برؤيته عريسًا ثم أبًا لكي

تسعد بأحفادها، وتحاول أن تنسى الماضي، ولكن الماضي لم يسمح بذلك.

افترشت أم همام الطريق وعينيها الحمراوتين جراء تلك السيول المتدفقة منهما حُزنًا على همام، والرمال تتناثر على رأسها وملابسها من كثرة ما فعلته في نفسها. كانت تشعر أنها النهاية لها، ولا قيمة بوجودها في الحياة بعد موت همام، ولم تكن تعلم أن همام مازال بخير، وأنه في عالم آخر لا يشعر بهم ولا تشعر والدته به.

لم تترك الأم الطريق، بل ظلت تنظر إلى الجبل، تجلس طوال الليل والنهار في الطرقات وقلبها يخبرها أن فلذة كبدها مازال حي، وأنه يومًا ما سوف يعود إلى حضنها مرة أخرى، وترى ابتسامته وبراءته الرائعة كالطفل، حينما يشعر أنه يحتاج إلى حضنها ليشعر بالأمان، مثلما كان يفعل وهو صغير.

خنتكاوس والجبل

كل هذا حدث وهمام لم يشعر به، كان يتلهف لسماع ما حدث بين خنتكاوس والفرعون، كان يتلهف لمعرفة إجابتها بالنسبة لزواجها من الفرعون فقال:

- وهل تزوجتِ الفرعون يا سيدتي؟

- لم تمنحني زوجة الفرعون الفرصة لذلك، فكان الخبر قد طار إلى قصر الفرعون، فالكثير من الكهان كانوا لا يرغبون في وجودي في معبد الإله آمون، وأنا في حقيقة الأمر لم تكن لدي النية أو الرغبة في الزواج من الفرعون، ولكن زوجة الفرعون أعلنت الحرب مبكرًا، وتفاجأت أنها بعثت الكثير من الرسل في كل بقاع مصر لجمع السحرة للنيل مني وإبعادي من مدينة منف للأبد.

- وهل استطاعت أن تجمع السحرة ليقضوا عليكِ؟

- بالفعل... شعرت أنني وحيدة أمام الكهنة والسحرة الذين تجمعوا لقتلي وإبعادي عن طريق الفرعون.

- وماذا فعلوا ليلبوا رغبة الملكة في التخلص منك والقضاء عليك؟

- عندما كنت بالمعبد سمعت امرأة تنادي علي تأمرني بالخروج، وعندما خرجت وجدها زوجة الفرعون، وخلفها عشرة من السحرة ينظرون إلي بنظرة تحدي، كأنهم ينتظرون إشارة زوجة الفرعون للقضاء علي، وجدهم يتأهبون لذلك، وبالفعل أمرهم زوجة الفرعون بالتخلص مني نهائيًا.

- وهل كنت مستعدة لذلك سيدتي؟

- كانوا بالفعل سحرة لهم قدرهم، وخاصة عندما تكتلوا معًا بفكر واحد ليقضوا علي، ويشتتوا تفكيري وسحري أمام ما يفعلون.

- وماذا فعلوا أيتها الملكة؟

- أول أفعالهم عندما دقوا الأرض بعصياهم حتى تشققت الأرض وظهرت منها ثعابين كثير متجهة نحوي، فكانت تلك الثعابين

تقفز في الهواء لتصل إلي، ولكني استحضرت آلاف من الجن على شكل طيور ضخمة شرسة تهبط من السماء بقوة شديدة لا يراها أحد، تلتقط الثعابين وتقتلها بعيدًا عني.

- ياللهول كل تلك الثعابين من أجلك أنت؟

- نعم.. ولم يكتفوا بذلك، فبدأوا يلامسوا تلك العصي ببعضها كأن شيئًا عظيمًا قد تم السماح له ليخرج من عوالم الظلمات إلى عالمنا نحن الإنس، وجدت الأرض تهتز بشدة كأنه زلزال ضخم، ثم ظهر ثعبان ضخم من جوف الأرض يبلغ طوله عشرة أضعاف رجل عملاق، في الواقع كنت في حيرة في أمري، فكيف استطيع أن أقضي على هذا الثعبان الضخم، والذي يبدو عليه أنه ملك من ملوك الجن يساعدهم في القضاء علي، وتذكرت والدتي، فأغمضت عينيَ حتى أتواصل معها لتكون بجانبي، فإذا بثعبان عملاق آخر يخرج من خلف المعبد متجهًا نحو ذلك الثعبان، شعرت أن أمي أرسلت من ينقذني من ملوك الجان العظام، وشعر السحرة العشرة بالرعب عندما شاهدوا هذا الثعبان، فدارت المعركة العنيفة ما بين الثعبانين وهما في واقع الأمر اثنين من ملوك الجان يتصارعان، كانت الأرض تهتز بعنف بسبب ما يحدث،

وأصبح الدمار يملأ المكان، وفي نهاية الأمر استطاع ملك الجان الذي يطيع والدتي أن ينتصر ويقتل الثعبان الآخر.

– لا أصدق كل ما أشاهده، هذا درب من الخيال يا سيدتي، هل يمكن للسحر أن يفعل كل ذلك؟

– بدأ الخوف يظهر على وجه زوجة الفرعون، وأمرت السحرة أن يفعلوا كل ما يستطيعون من اجل القضاء علي، ولكني بدأت أشعر بالثقة مرة أخرى، بدأ السحرة يشعلون كرات من النار بين أيديهم ويقذفوها نحوي، الواحدة تلو الأخرى، فإذا بتلك النار تلتف حولي حتى أصبحت كرة عظيمة من اللهب تحيط بي، ولكن لا تلمسني، فقط تشتعل من حولي، ظن السحرة أنهم انتصروا وتغلبوا علي بعد كل تلك المحاولات.

وماذا فعلتِ لتجنب تلك النيران سيدتي؟

– انتظرت حتى تغير لون النيران من اللون الأصفر إلى اللون الأحمر الحارق، فأمرتها أن تكون بين يدي، ثم قذفتها بكل قوتي نحو السحرة فأحرقتهم جميعًا، حتى لم يبقَ منهم سوى رماد عظامهم فقط.

- ياهول مساكين أهل قريتي.

- عندما شاهدت زوجة الفرعون ما حدث للسحرة خرت ساجدة لي تطلب الصفح والغفران، وأن أدعها تعيش، فأمرتها أن تقف وأخبرتها أنني لم أكن أريد الزواج من الفرعون، وأنني سوف أغادر منف وأبقى في مكان بعيد عن تلك المدينة.

- وماذا فعلتِ مع الفرعون بعد ذلك؟

- علم الفرعون بما حدث فدعاني مرة أخرى لأكون ملكة مصر، ولكنني أخبرته أن الإله آمون قد أرسل لي من يأمرني بالذهاب خارج المدينة، والعيش في أحد الجبال، ولا أستطيع أن أعصي رغبة الإله، ولذلك سوف أرحل خارج المدينة.

- وهل وافق الفرعون على ذلك؟

- لم يكن يستطيع أن يرفض رغبة الإله، وشعرت أنني أريد أن أعيش بعيدًا أتأمل أحوالي، ربما أجد شخصًا ما لا يعلم حقيقتي مثل والدتي، وأعيش في سلام.

- وهل حدث ذلك؟

- للأسف لم يحدث هذا، كان العامة يشعرون أنني ملكتهم الحقيقية فتبعوني إلى هذا الجبل، وكانوا يزدادون كل يوم، فبنوا لي ذلك المعبد حتى أحقق أمنياهم وأحلامهم، وبقي الحال هكذا حتى وافتني المنية وتم دفني في مقبرة عظيمة داخل هذا الجبل يحرسها ملوك من الجن، حتى لا يقترب منها اللصوص، مثل جدك الأكبر.

شعر همام في تلك اللحظة بالخزي والعار، وبما فعله جده الأكبر الذي يستحق أن تطلق عليه الملكة كلمة لص، فلا يوجد مبرر لما فعله.

- لكن لم تخبريني بقصة التماثيل الثلاثة، وما تلك القوى الموجودة داخل التماثيل؟

- قبل وفاتي شعرت أن العامة سوف يفتقدون الأمل والحلم، ووجود من يقف بجوارهم دائمًا، فصنعت التماثيل التي تحمل روحي والخير والشر، لتكون البوابة التي أعود بها كروح، أشاهد ماذا فعل البشر من بعدي، ولهذا فالروح تسكن ذلك المكان، وربما تبقى لبعض الوقت أو ترحل، وأنت الآن في حضرتها يا

همام، وأعتقد أن القصة أوشكت على الانتهاء لتعود مرة أخرى إلى القرية.

– لكن لي سؤال أخير، دائمًا كان يشغل عقلي وتفكيري، وأعتقد أنكِ تعلمين ما هو السؤال.

– تريد أن تعرف كيف مات والدك ولماذا؟

– نعم يا سيدتي.

– ما فعله جدك الأكبر جعلني في مقبرتي لا أستطيع الخروج منها لكي أطير بين النجوم، وأرتحل من مكان لآخر، وذهبت معظم قوتي مع سرقة التماثيل الثلاثة، فكان الغضب يسيطر علي بشكل كامل، وعندما أراد والدك أن يصعد الجبل لم أكن قد سمحت له بذلك، مما جعلني استشيط غضبًا، فأمرت الذئاب أن تأكله، ولكن بعد ذلك شعرت بالندم، وتسببت في كل هذا العذاب لك.

– ولماذا سمحتي لي بالصعود إلى الجبل؟

- كنت أتابعك منذ طفولتك، وشعوري بالندم تجاه والدك جعلني أختارك لتفعل الصواب، وبالفعل فعلت الشيء الصواب، فشكرًا لك يا همام.

ابتسم همام لها قائلاً:

- لي أمنية أو رغبة أخيرة قبل أن أعود إلى قريتي أيتها الملكة الرقيقة، أنا أطمع فقط في أن تعيدي الخير والأمان لقريتنا، ولا يعد بها لعنات بعد الآن، نريد أن نعيش في سلام بجوارك أيتها الملكة العظيمة.

ابتسمت خنتكاوس لهمام قائلة:

- لك ذلك يا همام، ولكن أخبرهم أن من يجرؤ على صعود الجبل لن تكون هناك رحمة بعد الآن، أما بالنسبة لك يا همام فسوف أنتظرك، لعلك تعود إلي مرة أخرى، أما الآن فيمكنك العودة إلى قريتك بأمان.

ابتسم همام لخنتكاوس وهو يودعها كأنه يودع من أحبها يومًا ما، ولكنه كان يدرك أنها في نهاية الأمر امرأة توفيت منذ آلاف السنين، وأن كل ما شاهده عبارة عن روحها التي تسكن الجبل.

خرج همام من الكهف فوجد أن الوقت قد اقترب من الظهيرة، ولابد أن والدته قد شعرت بغيابه في تلك الليلة، وبالتالي سوف تعنفه بسبب تهوره هذا، والصعود إلى الجبل، أسرع همام يهبط من الجبل ليطمئن والدته بسلامته، وأنه لم يصبه أي مكروه.

النهايـة

عندما بدأت تظهر ملامح القرية من بعيد لم يكن همام يدري ماذا حدث، ولم يكن يدري أن غيابه استمر أكثر من أسبوع خارج القرية، وأن والدته تكاد تموت من الحزن عليه، بل كان يشعر بالسعادة والفرح، فالآن لا توجد لعنة، والقرية ستعيش في سلام بدون خوف، وقد استطاع أن يصلح ما فعله الجد الأكبر، وعادت التماثيل إلى مكانها الأصلي داخل الكهف.

شعر همام أنه سوف يكون بطل القرية لأجيال قادمة، وسوف تروى الحكايات عن شجاعته، وعما فعله من أجل القرية، سوف تروى الكثير من الأساطير حوله، يحتفظ بها الأطفال في كل جيل داخل قلوبهم وعقولهم، وسوف يُخلد اسمه إلى الأبد، مثلما كان يرغب صديقه مستر جيمس.

عند دخوله القرية وجد همام الأطفال ينظرون إليه بتعجب ودهشة، ثم انطلقوا مسرعين نحو قلب القرية وهم يصرخون:

– لقد عاد همام من الجبل... همام مازال حي... همام حي يا أم همام.

تعجب همام من ذلك، خاصةً عندما وجد النساء يطلقن الزغاريد، والأطفال يحيطون به وعيونهم كلها سعادة، حتى خالد وجده يجري نحوه والسعادة تملأ عينيه، احتضنه بقوة وأخذ يقبله بشدة كأن همام قد عاد من الموت.

– ماذا حدث لكل هذا يا خالد؟

خالد يلهث بشدة ولا يستطيع أن يكمل جملة واحدة قائلاً:

– يا أخي لقد صعدت إلى الجبل دون أن تخبر أحد، وحاول أهل القرية أن يصعدوا ليحاولوا إنقاذك ولكن الذئاب السوداء منعتنا من الصعود إلى الجبل، والآن أنت غائب عن القرية منذ أسبوع، وأمك المسكينة كادت تجن بسبب صعودك إلى الجبل وغيابك كل هذا الوقت، مثلما فعل أبوك.

– هل أنا غائب منذ أسبوع؟!

– نعم، والقرية كلها كانت حزينة على غيابك هذا.

في تلك الأثناء علمت أم همام برجوع همام من الجبل من خلال الأطفال الذين كانوا يجوبون طرقات القرية لكي يعلم كل أهلها بعودة همام.

أسرعت أم همام تجري نحو طريق الجبل، كانت تعلم أن قلبها لم يكذب عليها عندما أخبرها أن همام ما زال حيًّا لم يمت. كانت تسقط ثم تقف مرة أخرى لكي تكمل طريقها مسرعة لتشاهد همام وترتمي في حضنه، لكي تبكي بشدة وتلومه على ما فعله بها.

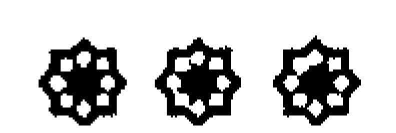
عندما شاهدها همام وهي تجري نحوه وتناديه؛ ترك خالد ومن تجمع حوله من أهل القرية واحتضنها وأخذ يقبل رأسها ويديها وقدميها، والدموع تسيل من مقلتيه قائلاً:

– أنا أسف يا أمي، لم أكن أعلم أنني سوف أسبب لكِ كل هذا الحزن والألم، سامحيني يا أمي.

كان همام يحتضن أمه بقوة، وقد تجمع أهل القرية حوله فرحين بعودته، فقال بأعلى صوته:

– من اليوم لا لعنة بعد الآن، التماثيل قد عادت، والملكة عادت إليها روحها، والحياة سوف تعود إلى قريتنا... الخير والسلام

سوف يعم كل أنحاء القرية، عاد كل شيء إلى طبيعته، ولكن لا أحد يقترب من الجبل، فالجبل للملكة فقط، ومن أراد أن يذهب فليذهب إلى الجحيم أولاً قبل أن يصعد إلى هذا الجبل، أما أنا وأمي فسوف نرحل بعيدًا عن تلك القرية، بلا عودة، ربما نستطيع أن ننسى كل ما حدث لنا في يومٍ ما، ونجد السعادة في مكان آخر، في قرية أخرى لم يكن الطمع سبيلها، فالبشر هكذا ينسون ما يفعلون، ويتذكرون شهوتهم فقط، فوداعًا لهذا الجبل، ولكل مَنْ مات مِنْ أجله.





منذ آلاف السنين؛ عاشت الملكة الساحرة داخل هذا الجبل، بعد أن شيَّد لها مريدوها والمؤمنون بها معبدًا تمارس بداخله طقوسها وسحرها، وكان العامة يسجدون لها ويقدمون لها القرابين لكي تمنحهم البركة في حياتهم.

كان الجميع يدركون عظمتها وقواها السحرية الخارقة، وفي الليالي القمرية يشاهدون ما يشبه الطائر العظيم يخفق بجناحيه عاليًا نحو السماء، حتى أنه كان يخفي ضوء القمر عن القرية بأكملها، وكانت الذئاب تهبط من الجبل بأعداد كثيرة وكأنها تنبئ باستيقاظ الملكة من نومها؟!.

كانت الملكة تتوسط معبدها وأمامها طاولة فوقها ثلاثة تماثيل صغيرة، وكانت الذئاب تحرس المعبد من الخارج، ولا تسمح إلا لشخص واحد فقط بالدخول، حيث يضع القربان أمام الملكة ثم يسجد إليها ويتمنى أمنيته في ذهنه دون أن يتحدث إلى الملكة، فتتحرك تلك التماثيل لتخبره إن كانت الملكة ستقبل رغبته أو ترفضها، أو أنها سوف تشمله بالحماية والقوة، ثم تأتي الذئاب لتأخذ القربان بعيدًا عن الملكة.

وهكذا استمر الحال بعد موت الملكة لآلاف السنين، فمن كانوا يؤمنون بها صنعوا لها تمثالاً ووضعوه في المعبد داخل هذا الكهف، وأمامه تلك التماثيل، وكانوا يمارسون كل الطقوس التي كانت تحدث أثناء وجودها على قيد الحياة، فالتماثيل كانت تتحرك لتعطي الإشارة لمن يقدِّم القرابين

وظلت الحياة مزدهرة في القرية القائمة في حضن الجبل، فالناس يتوافدون إليها لزيارة الملكة وتقديم القرابين.... لكن كل شيء تغير منذ ما يقرب من ستين عامًا ومنذ حلَّ هذا الغريب بالقرية....

